الصّراعُ بَين الفكرة الإسْلاميّة والفكرة الغربيّة
في الأقطارِ الإسلاميّةِ

دار النّدوة للتوزيع
لبنان

الطبعة الثانية

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

في الاقطار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية في عبارة أصح ، في جميع الأقطار الإسلامية في هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية والأفكار والقيم الغربية ، وهي المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التي يخوضها العالم الإسلامي اليوم وهي التي ستقرر مصيره وهي معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التي يغالي في تصويرها أو تهويلها الكتاب والمؤلفون ، فكل معركة - غير المعركة الكبرى التي ننوه بها - إما معركة محلية ، أو معركة فرعية ، أو معركة وهمية . إن تاريخ هذه الأقطار القديم وحب الشعوب المسلمة للإسلام وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الذي قاتل دونه المقاتلون وتيسر به الظفر بالحرية أو المحافظة عليها إذا كانت من قبل ، كل هذه الحقائق تثبت أن هذه الأرض التي نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية ، ولا يسمح فيها إلا لمنهج ونظام دعا اليهما الإسلام .

لكن الطبقة التي تملك زمام هذه البلاد إن عقليتها وثقافتها وتربيتها

ومصالحها الشخصية والسياسية كل ذلك يقتضي أن تزدهر فيها القيم الغربية وأفكارها ، وأن تتبع هذه البلاد الدول الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وهي تغير مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية أو تطورها اذا عاكست هذا الهدف وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية، وفي عبارة وجيزة تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية .

ومن هذه الأقطار ما قد قطع أشواطاً بعيدة في هذه الرحلة ووصل إلى هدفه المنشود أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطرق ولكن يبدو أن موعده قريب .

إنني أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطار الإسلامية، وهي مشكلة حقيقية لا صلة لها بالأوهام والأحلام ، إن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلي ونفوذ الحضارة الغربية واحتلالها واستيلاء الأفكار الغربية المادي والسياسي يرسم في الأفق علامة استفهام واضحة ضخمة أمام الأقطار الإسلامية كلها ، ولا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أي موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة !؟

وأي منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعها بالحياة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث !؟

وإلى أي مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة؟

إن وضع الجواب على هذا السؤال هو الذي يحدد مكانة هذه الشعوب في خريطة العالم ويعرف به مستقبل الاسلام في هذه البلاد ومدى وفائها لرسالة الاسلام الخالدة العامة .

كنا نشعر بحاجة شديدة إلى استعراض هذه المسألة وما قام به العاملون الموجهون من جهود في اتجاهات مختلفة ، ودراستها دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه ، وتحليلها من غير بخل واسراف ، والتنبيه إلى طريق سوي لنهضة المجتمع الإسلامي الذي لا يتحتم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق ومنهج الحياة الاسلامية فحسب ، بل تقع عليه مسؤولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العالم أيضاً ،ولا يتحتم عليه المسايرة لركب الحياة السريع فحسب بل قيادته كذلك .

إن جميع الاقطار الاسلامية وأخص منها ما تحررت حديثاً في حاجة إلى بحث عميق في هذا الموضوع لان أدنى انحراف أو زلة قدم سوف تهوي بها إلى مكان سحيق وتبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال .

وبهذا الدافع كتبت مقالاً سهبا في أوائل سنة ١٣٨٢ ه لم يلبث أن تحول الى كتاب نشر في شعبان سنة ١٣٨٢ ه ـ فبراير ١٩٥٣ باسم « موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية » واعتنت به الاوساط العلمية والدينية في العالم العربي .

وقد أُتيح لي السفر إلى أوربا بعد نشر الكتاب ورأيت مركزهذه الحضارة ومعقلها عن كثب وشاهدتها في بيتها وعقر دارها، واستفدت

من هذه الرحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة ، وزدت فيه زيادات قيمة مهمة جاءت ضعف ما كان عليه الكتاب حتى أصبح بذلك كتاباً جديداً،وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الاسلامية » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفق قادتنا وزعماءنا إلى فهم مسؤوليتهم الدقيقة الضخمة وأداء هذه المسؤولية بحول الله وقوته بأحسن ما يمكن.

وقد ساعد المؤلف في تأليف الكتاب ونقل بعض المواد إلى العربية الاساتذة سعيد الاعظمي ومحمد اجتباء الندوي ومحمد الحسني مساعدة غالية فلهم شكر المؤلف وتقديره ودعواته .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

بستان نورولي ــ المدينة المنورة

١٣٨٥/١/٩ هـ ١٩٦٥/٥/١٠ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الموقف الأول

من الحضارة الغربيّة

الموقف السلبي



بسم الله الرحمن الرحيم

العالم الاسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية :

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة ، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه .

هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ،والتي لم تكن إلا مظهراً من مظاهر العوامل التي تكونت واختمرت قديماً ، وظهرت في أوانها .

واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة وجهاً لوجه ، لانه هو زعيم الرسالة الدينية والخلقية، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري، بعدما انسحبت الديانات القديمة من معترك الحياة ، وصاحب القوة الكبرى التي يحسب لها الحساب ، وصاحب الدول الواسعة في هذا القرن ،فكان تحدي هذه الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لاي أمة ، ولاي حضارة ، ولاي مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب :

وكانت هذه الحضارة ـ بمعناها الواسع ـ مجموع عقائد ومناهج

فكرية ، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الاوربيـة التي تزعمت هـذه الحضارة في رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريباً من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحدا متشابهاً، كانت مزيجاً من السليم والسقيم، ومن الصواب والخطأ، في النتائج والاحكام. ومن البديهيات في العـلم التي لا تقبل الجدال والشك، ومن التخمينات والتحكمات في الآراء والدعاوى التي تقبل المناقشة الطويلة والجـدال الكثير ، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ومما هو فج لا يزال في دور التجربة والاختبار، والنشوء والارتقاء ، ومما لايختص بإقليم أو عنصر من علوم تطبيقية ، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعـة الاوربية ، وأثرت فيه البيئة الغربية ، وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الامم ، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً، وذلك الذي زاد في تعقد هذه المشكلة وخطورتها، وأحرج مركز العالم الإسلامي، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه، وأصحاب التوجيه فيه .

الموقف الأول السلبي :

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيـع العالم الاسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الاول موقف السلبية، وهو أن يرفض العالم الاسلامي هذه الحضارة وما جاءت به بتاتاً ، ويقف منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والاجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبعياً وشرعياً ، ونتائجه :

وهذا لا بد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم، ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، ولا حرب مع الطبيعة البشرية ، ومنطق الحوادث والحقائق ، وهو ــ بصرف النظر عن كل هذا ــ ضيق في العقل ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على الإسلام، وسوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون[1] واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره[2] ويأمر باعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو[3] وينظر إلى الإنسان كخليفة الله في

١ ــ «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار». (آل عمران ١٩٠ ــ ١٩١).

٢ ــ «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (الترمذي : ابواب العلم).

٣ ــ «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» (الانفال ٦٠) .

هذه الارض[١] سخر له البحار والانهار ، وسخر له الشمس والقمر ، وسخر له الليل والنهار ، وآتاه من كل ما سأله بلسان المثال أو بلسان الحال[٢] وامتنّ على عباده بإنزال الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للنّاس[٣] وضرب رسوله المثل لامته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع من غير المسلمين وغير العرب ، فحفر الخندق في الاحزاب كما كان يحفره الفرس . وعلى هذه السيرة سار أصحابه وفقهاء أُمته من بعده ، فكانوا يسابرون الزمن ويجارون الامم في الاساليب الحربية واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة ، وتعلم العلوم النافعة ، ويسبقونها أحياناً .

ولو حاول قُطر من الاقطار أن يطبق عينه وسمعه عن تحدي هذه الحضارة الصارخ ، أو أن يرفضها رفضاً باتّاً ، وصمم على أن يعيش في عزلة عن العالم المعاصر ، منطوياً على نفسه ، لما استطاع ذلك ، ولواجه ثورات لا آخر لها ، وعصياناً وتمرداً في الداخل ، لانه يعارض الفطرة الانسانية الوثابة الطموح ، الولوع بالجديد ، الطالبة للمزيد ، الطامحة دائماً إلى المجد والقوة والتجديد ، ويعارض كذلك السنن الكونية وطبائع الاشياء ، ولو فعل ذلك قطر من الاقطار لتسربت هذه الحضارة

١ ـ «إني جاعل في الأرض خليفة »(البقرة ٢٠) .

٢ ـ «الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار * »(ابراهيم ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤) .

٣ ـ «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »(الحديد ٢٥) .

إلى اسر هذا القطر وبيوته ، كما يتسرب الماء في القرية أو المدينة اذا أحاط بها السيل من كل جانب ، وطغى عليها الفيضان .

مصير الاقطار التي تعيش في عزلة عن العالم :

لقد كانت الفترة التي عاشت فيها بعض الاقطار الاسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها ، زاهـدة في مرافقها وأساليبها ، منطوية على نفسها ، لقد كانت هذه الفترة دائماً قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضاري والثقافي من الخارج ، وموجات هذه المدنية العاتية التي تتغلغل الى الجذور والاعماق ، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادىء الاخلاق، ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته، وعرف ضعف هذه الاقطار الروحي والمادي ، وفقدها مايقاوم هذه الحضارة من ايمان وقوة شخصية وثقـــة ، يشك في بقاء هذه الاقطار في سلخها وحصارها المدني والثقافي والاجتماعي ، ويشك في طول هذه الفترة ، ــ لانها مع وجود هذا الضعف في الشخصية والفقر في القوة المعنوية ــ غير صالحة للطول والامتداد ، فضلا عن البقاء والاستمرار .

زار الاستاذ محمـد أسد ــ الذي عاش في أوروبا وتجول في العالم الاسلامي ــ الجزيرة العربية الوادعة الهادئة في سنة ١٩٣٢م وهي لاتزال متمسكة بتقاليدها العربية الاسلامية أشبه بالماضي منها بالحاضر، لم تجس خلالها الحضارة الغربية ، ولم تقتحم سورها ــ الرملي ــ الاساليب الغربية والمصنوعات الحديثة ، فشك في طول حياة هذه العزلة ، والبعد عـن تأثير الحضارة الغربية التي طوقت الجزيرة ، فقال :

« وعندما وصلت بتفكيري الى ذلك الحد ، سألت نفسي فجأة ، الى متى يستطيع زيد [١] وقوم زيد (العرب) أن يحتفظوا بتماسكهم الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر وبصورة لاتعرف الرحمة ، أو اللين ؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكناً سلبياً في وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه ، ان آلافاً من القوى ـ السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ تطرق أبواب العالم الاسلامي فهل يخضع هذا العالم ويستسلم الى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل ، لاأشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً » [٢] .

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تلبث هـذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة ، والمستوردات الغربية ، وأكثر من اسباب الترف ومن «الكماليات» فشحنت الاسواق، وملأت البيوت ، وقضت على التقشف في الحياة وصفات الفتوة والفروسية التي عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة والثقافة والسياسة وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب في مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ومن غير تفكير هادىء وتصميم سابق، فاصبح هذا الاستسلام ، الذي تخوف

---

(١) البدوي العربي الذي كان مرافق محمد اسد في مغامراته ورحلاته في صحراء العرب ، ودليله في هـــذه الرحلة .

(٢) الطريق الى مكة ص ١٤٠

منه الاستاذ محمد اسد أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية ـ فضلاً عن الاشكال والانظمة التقليدية ـ مهددة .

ويشعر الاوربيون ويتعجبون من هذا التحول والتطور الجذري وانتشار الاختراعات الغربية في صحارى جزيرة العرب الوادعة الصامتة الهادئة ، ووسائل الراحة والطمأنينة ، ووفرة وسائل العيش والترف والبذخ ، وارتفاع مستوى الحياة فجأة ، وتعقد الحياة العملية الساذجة البسيطة من قرون ، يقول مؤلف أميركي Don leretz في كتابه The Middle East - to day : (الشرق الاوسط اليوم) .

« وقد ضعفت وتضاءلت المؤثرات التقليدية بثروة الزيت (وساهمته عوامل القوى الغربية) بعد الحرب العالمية الثانية ، ويكاد ينقرض التراث الحضاري القديم المشترك الذي كان يربط الطبقات والاوساط المختلفة المتنوعة ، لان أفراد أسر الشيوخ الشريفة النبيلة الذين أثروا بفضل الزيت والبترول بدؤوا يخضعون للمخترعات الغربية والطرق الغربية الحديثة ، والتقاليد والعادات ، والذوق الغربي ، وأنشأ ذلك في المحيطات والطبقات السفلى اضطرابا وقلقاً ، لانهم لايستطيعون أن يعيشوا تلك الحياة المترفة الفخمة ، والتفّت القبائل البدو حول المدن تاركين رعي الحيوانات واقتناءها مثلاً ، وانهم يوماً فيوماً يعطفون على الطبقة القلقة السفلى العامة الدهماء التي تسكن في هذه المدن ويناصرونها [١] ، ويقول في موضع آخر :

(١) The Middle East to day , P 402

« ومن ناحية أخرى ، ان تـدفق الثروة الفجائية التي تجمعت وارتكزت في صندوق الاسرة السعودية ـ التي كانت تملك القـوة الكبرى والسلطان الهائل ـ ونشرت مع ذلك الرشاء والمحسوبية وعدم الشعور بالمسؤولية في الامور المالية بشكل عجيب ، وقد اتلف قسم كبير من الثروة الفخمة الناشئة عن الزيت بالاسراف والتبذير ، وحظيت بها الاسرة الملكية التي لاتشمل الملك وأولاده من هذه الجماعة الكبيرة الواسعة فحسب بل انها تشمل زوجاتهم وأصهارهم الذين يُعدّون بمئات، كانوا ينالون المال رأساً من هـذه الثروة ، ولم تعد الاسرة السعودية حاكمة في الصحراء وشيخاً وهابياً فحسب كما كانت في القديم ، بل انهم يعيشون عيشة ملوكية شرقية بكل نوع من أنواع الراحـة والعيش الرغيد الهنيء ، واشترى عشرات من الانجال الامراء سيارات ثمينة ، وبنوا قصوراً عالية شامخـة تتحلى بوسائل الراحة والعيش الحديثة (كمكيفات للهواء وحوض ومسابح جديدة للاستحمام والغسل) [(١)] ».

ويزيد الكاتب فيقول :

«وقد تضاءل ذلك الحماس الذي دافعت به القبائل الوهابية عن العقائد والاسس الاساسية للإسلام ، وامحت تلك الدعوة القوية الى البساطة والتقشف ، ولا ترتفـــع الآن أصوات التهديد والاحتجاج ضد وسائل الترف والبذخ الاجنبيـّة ، وهي لم تُقبل اليوم فحسب بل كل واحد من اعضاء المجتمع وطبقاته يتنافس في احرازها والظفر بها ،والقبائل التي كانت تقطن في الصحراء وتعيش عيشة ساذجة وحياة خشنة على غرار

(١) نفس المصدر ص ٤٠٧ ـ ٤٠٦

الحياة الوهابية قد هجرتها وأقامت حول منـــابع البترول وآبار الزيت ، واعتـــادوا بعد التحول الى هـذه الامكنة تلك الاشياء الغربية التي اختـرعت حديثاً، يشترونها بالمرتبات الفخمة التي يتقاضونها من شركة « آرامكو » [١] »

فلا شك ان جزيرة العرب لم تكن تقع فريسة الغرب الى هذا الحد لو قام قادة البلاد بمحاولات جدية لاكتفائها الذاتي والتخطيط والمشاريع، وبذلوا لها مجهودات مخلصة نزيهة لترقيتها وتدعيمها وتنظيمها على خطط محكمة واضحة ، وتناولوا الحضارة بنقد جريء وتفكير أصيل وعملوا بالمبدأ الإسلامي القـــديم « خذ ما صفا ودع ما كدر » لو كان ذلك لما تدفقت كسيل جارف عارم على مركز الإسلام ، ولم تكن من نصيب هذه البلاد القشور الظاهرة والمظاهر الخلابة الجوفاء فحسب ، ولكن السلطات الحاكمة قد تجردت عن بعـــد النظر وعمق التفكير والصبر والجلد الذي يحتاج اليه من يقود هذه البلاد في هذا العصر، وتـلقي على ذلك بعض الضوء قصة يرويها محمد أسد في كتابه الشهير « الطريق الى مكة » انـه يقول :

أذكر حديثاً مع الملك تبين فيه عدم تبصره وافتقاره الى النظر الإداري ، كان ذلـك في مـكة عام ١٩٢٨ م ، عندما قام زعيم الحركة الاستقلالية السورية الشهيرة ، الامـير شكيب ارسلان ، بزيارة الملك ، وقد قدّمني ابن سعود اليه بهذه الكلمات : « هذا هو محمد اسد ، ولدنا ،

The Middle East to day P. 407 (١)

لقد عاد الآن من المناطق الجنوبية ، انه يحب السفر بين البدو»واستبد الفضول حالاً بالامير شكيب ، الذي لم يكن زعيماً سياسياً فحسب بل رجلاً متعدد جوانب الثقافة وعالماً واسع الاطلاع ، لمعرفة انطباعاتي عندما علم أنني كنت رجلاً أوربياً اعتنق الاسلام . ولقد وصفت له بعض وجوه رحلتي تلك الى الجنوب وبخاصة اختباراتي في وادي البيشة الذي لم يزره قط رجل أوربي قبلي ، وكنت قد رجوت خيراً كثيراً من امكانات تلك المنطقة الزراعية الكبرى وتربتها الخصبة ، وفي وفي اثناء سردي للرحلة وجهت الحديث الى الملك وقلت :

« انني واثق ايها الامام ! من ان واديبيشة يمكن ان يصبح بسهولة مصدراًعظيماً للحنطة وان يموّن الحجاز كله بها ، بشرط ان يخطط ويعنى به عناية كافية . »

وأرهف الملك أُذنيه . ذلك ان مستوردات الحنطةلمقاطعة الحجاز كانت تستهلك كثيراً من مداخيل البلاد وكان النقص في المداخيل أهم مايشغل بال الملك . وسألني قائلاً :

« وكم يقتضي من الوقت كي يصبح وادي بيشة كذلك ؟ » .

ولما لم ا كن خبيراً ،فإنني لم استطع ان أُقدم الى الملك جواباً قاطعاً ولكني اقترحت ان تشرف بعثة من الخبراء الفنيين من الخارج على تخطيط المنطقة ، وان تقدم اقتراحاتها العملية لتطويرها ، كذلك تجرّأت على القول بأنها يمكن ان يصبح الانتاجفيها كاملاً في مدة تتراوح بين خمس سنوات وعشر .

ـ « عشر سنوات » ! ـ كذلك هتف ابن سعود .

« ان عشر سنوات مدة طويلة من الزمن . نحن البـدو لانعرف الاّ شيئاً واحداً ؛ ان مانحصل عليه بأيدينا نضعـه في افواهنا ونأكله اما ان نضع الخطط والمشاريع قبل عشر سنوات فشيء يطول امره علينا بأكثر مماينبغي . »

واذ سمع الامير شكيب هذا الكلام المذهل حـدق بي فاغراً فاه ، كأنما لم يصدق أُذنيه ، ولم أستطع الاّ أن أحدق به النظر . . [1] »

التقاليد والعادات لاتستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة :

ولن تطول هذه الفترة ـ السلبية ـ في أي قطر من أقطار الشرق لان التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعي أو الاداري الذي ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة،وليس معه ذكاء وألمعية،والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادىء الدينيةالخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة.والتمييز بين مايصلحللاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لايصلح،لايستطيع أن يقف طويلاً في وجههذهالحضارة العارمة ، وكل قطب أو قيادة تمني نفسها بالاحتفاظ بالقديم،والانحصار في دائرتها من غير هذه المقومات التي ذكرناها ومنغير ايمان جديد قوي وعقل واع منتج مهددة بالانهيار عاجلاً أو آجلاً .

واذالميكنالاقتباسمنالحضارةالغربيةومرافقهاومنتجاتهاعناراده وتصميم ، وباختيار وتمييز ، وعن فقه وبصيرة،هجمت على هذا القطر

(١) الطريق إلى مكة ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

أو المجتمع غصباً ، وعلى الرغم من قادته وولاة الامر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين؛ ورحب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الابواب ، والتهموها ـ بصالحها وفاسدها ـ في نهامة وجشع ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغُلِب قادة البلاد أو ولاتهم على امرهم ، وأُفلت منهم الزمام الى آخر الابد .

لابد من التخطيط وإصلاح الاوضاع :

لقد أصبحت الاقطار الشرقية ـ من غير استثناء تقريباً ـ فريسة الحضارة الغربية في الزمن الاخير ، وانجرفت في سيلها العارم من غير امتناع أو مقاومة ، لفَقد العقل الراجح المتزن في القيادة وفَقد «عملية التمييز والاختيار المحكمة» في الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الاسلامية الصحيحة ، لايقرها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء في أي عصر من العصور فضلاً عن هذا العصر القلق الثائر .

وهذه قصة افغانستان التي عُرفت في الشرق بشدة محافظتها وتمسكها بالقديم والتقاليد الافغانية القديمة ، فقد استطاعت ان تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية محتفظة بتراثها القديم من ثقافة واجتماع تزهد في الجديد الصالح ، حتى رفعت الحجاب بينها وبين الحضارة اخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف .

وقد حدثت هناك ثورة في الاوضاع في خلال ٣٢ سنة فالمجتمع

الافغاني الذي ثار على امان الله خان الامير العريق في الملك والشرف لاجل اصلاحات وتطويرات قام بها، اضطرته تلك الثورة الى التنازل عن العرش والجلاء الدائم ، أصبح هذا المجتمع الافغاني يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الافغانية بخُطى سريعة واسعة ، واصبحت أفغانستان المحافظة المصونة تتطور تطوراً سريعاً لايعرف احد مداه ونهايته ،ويستطيع الإنسان ان يقدّر ذلك بما نقدمه من تقرير لاحد الصحفيين الاوربيين ، يقول المراسل الاوربي الشهير Ritchie Colder للصحيفة الهندية الانجليزية Times of India وقد حضر عيد الاستقلال الافغاني في عام ١٩٦٣ م في عددها الصادر ـ ٢٨ يوليو ١٩٦٣ م ـ :

« إن الالعاب النارية الواسعة النطاق (التي لم أرها في أفغانستان من ذي قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها ، وقال لي وزير خارجية أفغانستان (الذي كان بجواري على المقاعد الملكية على شاطىء البحيرة حيث كانت الالعاب النارية متواصلة مستمرة) : انك لم تحسن اختيار الوقت الذي تزور فيه هذه البلاد نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ونحن في متعة وفرح لانستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدّمية لخمس سنوات .

قلت له : « لا ياصاحب المعالي ! انها فرصة حسنة لائقة وهي أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلاد ومدى تقدمها ، انني أُريد أن أرى السيدات

الافغانيات باسمات » وهنالك تقدمت اليناففتاةأفغانية جميلة وابتسمت.

ان ذلك يلقي ضوءاً على مدى التطور الذي نشأ في أفغانستان اقوى من الاضواء التي تنير كابل ، بالتخطيط الكهربائي ، ومن مبانيها كلها والصناعات الحديثة ومن الرقي المادي كله .

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وان سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين اليها متغطيات بالملاءة والاردية التي تغطيهن من الارجل الى الرؤوس ، ويخفي وجوههن القناع الذي فتحت فيه ثقوب للنظر .

ولكن الآن تغيركل شيء ويشاهداليوم عددكبير من النساء اللواتي يشهدن الحفل مستترات بالاقنعة التي تميزهن ولم يتعودن الى الآن ان يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الاغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج افغانستان ان يقدروا مدى تأثير هذا التطور على نساء الافغان ، قد خلع العلماء الملك امان الله خان وحرم عرش آبائه قبل ٣٢ عاماً لانه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة .

ويصح ان يقال ان الغاء الحجاب السائد في المجتمع انما جاء عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية ، عندما حلّت الدكتورة اينامبريا جيد (Anna Maria gada) (وهي الآن رئيسةالمركز الاقليمي [illegible] الصحة الدولية بدهلي) افغانستان من دانمرك قبل عشر سنين ، [illegible] لم [illegible] هناك في ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان في افغانستان كلها

مئة وعشرون طبيباً وكلهم كانوا رجالاً ولم يكن يسمح لطبيب ان يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحلية يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة .

بدأت الدكتورة جيد تربي النساء وتعلمهن القبالة ، وكانت تشترك معها سيدات الاسرة الملكية ايضاً ، واقيمت مراكز التوليد والصحة ، وبدات تتردد عليها النساء المحجبات كثيراً ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثوري وتغير جذري في التفكير واساليب الفكر والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبيبات والقابلات أن النساء يستطعن أن يكسبن ارزاقهن ايضاً بهذه المهنة كالرجال ، واسترعت هذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن وشعرن انهن لسن من اثاث المنازل الذي يبقى في زوايا البيت ولا يرى ضوء الشمس .

قد أسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء وألقيت مسؤولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية، يتمسكن بقوانين الصحة وأسسها القوية الحسنة وبغاية من النظافة والاناقة ، ويراعين تلك التقاليد التي تركتها الدكتورة جيد ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقـــاً .

بدأت نساء الافغان يخرجن سافرات من آب (اغسطس) عـام ١٩٥٩ م اثر منشور ملكي سمح للنساء السفور ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً . سألت السيدة معصومة الكاظمي وكانت قد تخرجت من جامعة كابل لشهادة الليسانس الداخلية في الطب وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة ، ماذا فعلتِ بعد صدور هذا المنشور ؟ . .

قالت : انني وأختي طرحنا الملاءة وأردية القناع في التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع اليها أبداً، ان معصومة وأختها فيروزة ابنتا صاحب مصرف وانهما ستكملان دراستهما الطبية وتحرزان شهادة الدكتوراه في سنة ١٩٦٥م ، وسيتخرج الفوج الأول للطبيبات بعد انهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م .

ويوجد التعليم المختلط في جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات في السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاءة الساترة ويدرسن في الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ، والدراسة والتربية في الجامعة مجّانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعة والكتب والملابس والأطعمة وسيتخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة ويُعيّنّ معلمات في الجامعة ، والجامعة الآن في حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء ، لأن الدراسة في الجامعة تعتمد إلى حد كبير على الاساتذة الاجانب (١) .

وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الاقطار الإسلامية التي أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصالحة ، والوسائل البريئة وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً وصناعياً وتموينياً .

وتستطيع ان تقدر إلى حد ما حالة اليمن، ومشاريعها التقدمية ونظمها الادارية الداخلية وعلاقاتها الدولية، وسيرها في مضمار الحياة الراقية الحديثة

Times of India, 28 July 1963 (١)

إلى عام ١٩٥٥ م ، من المعلومات التالية التي التقطها المشرف على ركن الشؤون العربية في الصحيفة السيارة « روز اليوسف » الاسبوعية المصرية «الاستاذممدوح رضا» في مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبد الله العمري ، ونشرتها الصحيفةفي عددها الصادر في ٧ من فبرائر (شباط) سنة ١٩٥٥ م محادثة جرت بينهماونصل منها إلى حقائق تالية :

لم يجر في اليمن إحصاء عام منظم إلى عام.١٩٥٥ م وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ،للريّ طريقان اثنان فحسب : الامطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليون ، وكان رصيد البلاد وثروة الإمام الخاصة لاتتجاوز.٨٠ مليون جنيه .

ولم تكن شوارع في البلاد عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كم بين البلدين « مخا » و « تعز » قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً الى سنة ١٩٥٥ م .

وكان ستمائة كتّاب في البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية في جميع المدن ماعدا هذه الكتاتيب ، والمدارس الثانوية في تعز ومخا وحُديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ،والعسكر الذي كان يؤدي خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثاني الذي ترك بعد التدريب للاحتياط والاعمال العرفية ، كان يتكون من ١٤ ضابطاً ، وكان عشرون الف جندي من القبائل المختلفة ، والحيوانات هي الوسيلة للمواصلات ،

وكانت بعض السيارات الخاصة في البلاد ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت احدى عشر طائرة فحسب ، بينها ثـــلاث طائرات من قسم « داكوتا » ولم يكن فندق ولا مطعم في البلاد،ولا معمل ولا الشرطة، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الاوربية للتنقيب عن الفحم والبترول والزيت».

إن هـذا الانحطاط والتخلف للبلاد وظروف الدنيا المحيطة بها ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة أن تأخذ ببعض أسباب الرقي والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول حكومة اليمن قروضاً ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك قبلت الصين عام ١٩٥٨ م على إثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليونا من الفرنك السويسري ، بدون الربا والمنافع، وتنفق في المشاريع التاليـــة :

١ ـ فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كم يصل حُديدة بصنعاء ،
٢ ـ تأسيس معمل للسكر ، ٣ ـ معمل للاسماك المجففة ،
٤ ـ تأسيس معمل للاقمشة ، ٥ ـ تأسيس معمل للزجاج [١] .

لم يكن مصير هذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذي لم يكن مؤسساً على المشروع والتخطيط المحكم ولامنبعثاً من

(١) اليمن للاستاذ امين سعيد ص ٢٨١

الثقة والعاطفة الدينية ، ولكن من الكسل والفتور والجهل الذي خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلاً) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة، فلا يميز بين الصالح والطالح والحابل والنابل وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظم الجديدة بمحاسن النظام القديم والافكار الصالحة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذي كان يسمّى « اليمن الميمون » وشهد بقوة ايمان أهلها ، وحكمتهم الدينية ، اللسان النبوي الصادق بكلمات يغبط عليها اليمن كل قطر وكل بلد اسلامي ، فقال في مناسبة قدوم وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية »[١]) يصاب هذا البلد العريق في الإيمان والحكمة والعلوم الدينية ، بالاضطراب الفكري والخلقي والسياسي ، ويصبح ضحية الاشتراكية، والحروب الطاحنة والثورات المتوالية .

وقد أبدى مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة في أوضاع اليمن بإحدى عشرة سنة تَخوّفه واشفاقه من هذا المصير الذي سار إليه اليمن أخيراً ، في حديث جرى بينه وبين سيادة القاضي محمد عبد الله العمري وكيل وزارة الخارجية اليمنية ، وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذي يجب ان يسلكه اليمن في الاقتباس من الحضارة الغربية، والذي يستطيع وحده ان ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذي وقعت

(١) صحيح البخاري

فيه الاقطار الإسلامية الأخرى ، وكان هذا الحديث في فندق « قصر الجزيرة » في القاهرة وهنا ننقل قطعة من كتاب « مذكرات سائح في الشرق العربي » للمؤلف :

يقول الكاتب في مذكرة يوم الثلاثاء ٧٠/٥/٧ هـ ٥١/٢/١٣ م بعد ما يذكر لقاءه لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرى بينهما من تحية واحتفاء وحديث تمهيدي .

« قلت لسعادته : إن الأقطار العربية قد أصبحت لاتملك من أمرها شيئاً فهي مندفعة مع التيار الغربي وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ولا يزال يملك أمره ، فأرجو أن لايستعجل ولا يتهور في الاقتطاف من الحضارة الغربية ونظم تعليمها ومنهج حياتها ولا يتساقط عليها تساقط الظمآن على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها مايوافق حياته ودينه وطبعه ورسالته ، ويدع فضولها وشرورها ، وقد عاش اليمن في العزلة عن العالم وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة فيعثر او يضل الطريق ، ويقع ما لا يمكن تداركه ولا تقال عثرته .

قلت : ودعامة الحياة الصحيحة عندي في البلاد الاسلامية وجود الشعور الديني الصحيح القومي في الشعوب ، ولا يكون هذا إلاّ عن طريق الدعوة العامة والاتصال بالشعب وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعي في طبقاته .

والدعامة الثانية منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم الماخوذ

من الوحي والنبوة الذي لايتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،وهو علم كل عصر وأساس كل حياة ومدنية فاضلة، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية ، والتجارب والاكتشافات التي سبق إليها الغرب وانتصر بها على الشرق .

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين وإذن نرجو أن يكون له شأن غير شأن الأقطار العربية الأخرى التي أصبحت لاإسلامية ولا أوربية[1] » .

وقد أبدى مثل هذه الانطباعات مؤلف غربي W. Erichbethmann في كتابه « اليمن على العتبة » (Yeman on the threshold) وقد زار هذا المؤلف اليمن في عام ١٩٥٩م في عهد الإمام احمد عندما كانت ابوابها مغلقة للنهضات الجديدة،وقدأعرب هذا المؤلف عن فرحه وتخوفه بالكلمة التاليـــة :

« ـ إن الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لايملكون كثيراً من مرافق الحياة ووسائل الترفيه ، ولا يحنّون اليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحيي والإمام احمد الحالي[2] أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستحدث في حياة اليمن ـ التي اعتادتها ـ كثيراً من التطوير الذي يأتي بنتائج خطرة ، ونجحا فيه إلى حد كبير ، ولكن يشك في أن تبقى هذه الاوضاع إلى مدة طويلة .

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ٧٠ و ٧٢
(٢) قد توفي أيضاً رحمه الله

إن العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف والإذاعة والأضواء الكهربائية في البلاد ، وستصلها الاشياء الاخرى على إثرها وسيحدث هذا الاصطدام تبلبلاً عظيماً وستدخل مرحلة انتقالية ، ولا ندري أن هذه المرحلة ستمر بدون اضطراب ، أم تنشيء في البلاد الفوضى والقلق ؟ يعتمد ذلك الى حد كبير على السبيل التي يختارها ، والخطوة التي يخطوها اليمن لتأليف حكومة على طراز جديد ،تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادي العصري ! يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجياً ، وتحتاج الى حكمة بليغة وبصيرة نافذة وان تكون الخطوات البدائية متزنة وأن تكون الطرق التي تتخذ لتقدم البلاد سليمة مستقيمة [١] »

وبعدما ذكر المؤلف المشاريع والنظم والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التي يتخذها اليمن لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون ان يقدموا لبناء البلاد القويم المحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة ،يدعو الى الانسجام السليم بين المادية والروحية ونهضة البلاد المقتصدة ، الذي كان متوقّعاً من مفكر مسلم شرقي أكثر من عالم غربي ، فيقول :

« — لاريب ان اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة في نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الديني والروحي القيم ، ولا يستطيع الرقي المادي وحده أن

(١) Yeman on the threshold p. 71

يداوي الامراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التي وصلت الى القمة في الرقي والنهضة كل يوم بكل أسف وحزن، وحينما يحافظ على القيم الانسانية الأساسية ويحتل التراث الديني والروحي مكانة مرموقة في ضمائر الافراد (الذين تتألف منهم الامة) يصبح الرقي المادي نعمة كبرى ، وتثري كل ناحية من نواحي الحياة .

إن اليمن يصبح « جنة عدن » لبلاد العرب التي يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة وبتراثه الروحي الثمين واقتناء قدر من الرقي المادي الذي يحتاج إليه وينسجم مع حياته وظروفه، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمة مقتصدة ليس في ترقية العالم الإسلامي فحسب ، بل في ترقية العالم كله على الجملة [١] » .

ولقد كان الوعي الإسلامي كافياً وكافلاً لإصلاح هذه الأوضاع ولكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الثائرة تنادي في شيء كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما كانت ، فتفشى القلق والتذمر في هذا المجتمع ، وقوي الشعور وتضخم بفساد هذه الأوضاع وعدم صلاحيتها للبقاء، وجاشت النفوس بالكراهة والثورة على الاوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية في الاقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة، وحكم عسكري على اثر حكم عسكري آخر.

---

(١) Yeman on the threshold p. 74

سبب حدوث الثورات في العالم الإسلامي وعلاجه :

ولعل العالم الإسلامي كان أكثر استعداداً وتهيؤاً لهـذه الثورات لوجود الوعي الديني ، الذي يبعث على القلق والإنكار في هـذه البلاد أكثر من عالم آخر أو مجتمع آخر ، أو لفساد الاوضاع فيه أكثر من أي ناحية ، وما دام التخلف في الحياة والقوة ، وما دام الفقر المدقع في بعض الطبقات الذي لا يجد معه صاحبه ما يقيم الصلب ، ويكسو العورة ، ويمسك الرمق ، وما دام الثراء الفاحش ، والاكتناز المجرم والعبث بالأموال الى حـد السفاهة والجنون ، وما دام الترف والفجور والاستهتار في طبقات الامراء والاغنياء تروى قصصه المضحكة المبكية في كل ناد وكل صحيفة ، وما دام الجهل ضارباً أطنابه على الشعب ،وما دام العلماء وزعماء الدين يتقاصرون عن أداء واجبهم الديني ، وازجاء كلمة الحق أمام الاقوياء والاغنياء،ويتنافسون في المناصب والوظائف، ويتصارعون على التافه من الخلافيات، والخسيس من المادة ، وحكاياتهم تروى وتتناقل ، وما دامت التربية الدينية والامثلة العملية ـ في الورع والزهـادة وسمو النفس والشجاعة الدينية ـ مفقودة أو نادرة في حكم المعدوم، وما دامت الدعايات والدعوات تتسرب الى المجتمع وتجد مرتعاً خصباً في النفوس ، وأدلة ومؤيدات في الاوضاع ، وما دام هذا الوضع غير الطبيعي وغير الإسلامي سائداً في هذه الاقطار الاسلامية .

وكان وضع كثير من الاقطار الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الاسلامي الكبير محمد عاكف في احدى قصائده وهو قوله :

« - يسألني الناس: انك كنت في الشرق مدة طويلة، فما الذي شهدت يا ترى! وماذا عسى أن يكون جوابي؟ انني أقول لهم:

انني رأيت الشرق من أقصاه الى أقصاه، فما رأيت الاّ قرى مقفرة، وشعوباً لا راعي لها، وجسوراً متهدمة، وانهاراً معطلة، وشوارع موحشة، انما رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة، وظهوراً منحنية، ورؤوساً فارغة، وقلوباً جامدة، وعقولاً منحرفة، رأيت الظلم والعبودية، والبؤس والشقاء، والرياء والفواحش المنكرة المكروهة، والامراض الفاشية الكثيرة، والغابات المحرقة، والمواقد المنطفئة الباردة، والحقول السبخة القاحلة، والصور القذرة، والايادي المعطلة، والارجل المشلولة، رأيت أئمة لا تابع لهم، ورأيت أخاً يعادي أخاه، ورأيت نهاراً لا غاية له ولا هدف، ورأيت ليالي حالكة طويلة لا يعقبها صباح مسفر ونهار مشرق»

فإنها مهددة - لا محالة - بالفوضى الخلقية والسياسية، معرضة للثورات العسكرية أو الشعبية، واقفة على فوهة بركان، متهيىء للانفجار في أي وقت كان.

ولا يمنع من ذلك سلطة قوية، أو عقاب صارم، او محاسبة دقيقة، او مراقبة تحاسب الناس على الانفاس، وتتبع الخواطر والهواجس، ولا دعايات صحفية او إذاعية، ولا بذل أموال طائلة على أصحاب الاغراض والمطامع، ولا مآرب سخية في السفارات، ولا مشروعات ترضي أصحاب العاطفة الدينية. انما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم، واصلاح الاوضاع بإخلاص وصدق، وازالة ما يجب ازالته من الفساد.

وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب. وتحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر بها الإسلام وثبت في صريح القرآن وصحيح السنة . والسعي الحثيث لرخاء الشعب . وان يجد كل فرد من افراد الشعب ـ بقدر الامكان ـ قوته . ومنع البذخ الذي يحول بين الشعب وقوته و « حاجياته » . وان يسبك نظام المعارف سبكاً جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد ورسالتها. ومع تطور العصر الحديث وعلومه الجديدة. ويخلق في الجيل الجديد الايمان والخلق والاستقامة والثقة بالنفس . والاعتزاز بالدين والحماسة في سبيله . ويخلق فيه روح الابتكار والاستقلال الفكري . والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعة وذكاء . واعادة الروح الدينية والايمان القوي. والشعور الخلقي والوعي الاسلامي في الشعب .وازالة القلق والتذمر ازالة اسبابها ودواعيها . وبإصلاح الاوضاع والسير والاقتباس من الغرب ما يصلح لشعب اسلامي . ويتفق مع عقيدته السمحة. وما له قيمة عملية ايجابية. وما يقوي الشعب وينفعه في كفاح الحياة والجد والدعوة الى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لاقرار الامن والسلام في هذه المناطق الشرقية الاسلامية. وبقاء هذه الشعوب على اسلاميتها وعقيدتها وسيرتها الدينية . وبعبارة علمية مركزة «ان العالم الاسلامي وأقطاره في حاجة الى بناء مجتمع اسلامي تقدمي عادل تستطيع فيه الطريقة الاسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً[١] » .

---

(١) استفدنا في هذا التعبير من بعض ما جاء في كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ص ٢٢٠ .

الموقف الثاني

حركة التغرب و «التقدمية» في العالم الإسلامي

أنصارها ومنتقدوها



الموقف الثاني موقف الاستسلام والتقليد :

والموقف الثاني ، موقف الاستسلام والخضوع الكامل ، موقف المقلد ، المؤمن المتحمس ، والتلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز ، وهو أن يقبل العالم الاسلامي ــ أو جزء منه ــ هذه الحضارة ــ المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة ــ بحذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، ومناهجها الفكرية ، وفلسفاتها المادية ، ونظمها الاقتصادية والسياسية ، التي نشأت واختمرت ، في بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة ، وبتوجيهها ، ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتها ، ويتحمل في سبيل ذلك كل صعوبه وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن ، وأبهظ قيمة .

حركة « التغريب » في تركيا وأسبابها :

وقد سبقت ــ الى هذا الاسلوب من التفكير والمنهج من العمل ــ تركيا الإسلامية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، ورحلة طويلة ، فقد حاربت أوربا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب ، وتتسلح بسلاح عدوها العلمي والصناعي ، وفرّطت في اقتباس العلوم المفيدة من اوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإداري تفريطاً مجرماً ، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً في توجيه الأمة والبلاد توجيهاً علمياً وفكرياً ، وفي الإشراف على اتجاهاتها التي يفرضها الزمان والمكان ، وتغيّر الأحوال في العالم كله ، وتقرير الصالح منها ، وتزييف الطالح ، ووقفوا على ماوقف عليه العلم والمعرفة

والتفكير في القرن الثامن عشر، وفوق كل ذلك فقد استغلّ السلاطين – إلاّ من عصم ربك – اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة، وتحقيق رغباتهم، وكانوا من أسباب تأخر البلاد، والهزائم والانتكاسات التي تحققت بالامة، ومُمالأة الاعداء في أحيان.

إن هذه الجوانب وإن كانت شخصية او فردية ولكنها لم تكن سراً مكتوماً وكانت تثير السخط والكراهة في نفوس الشباب والحريصين على سلامة البلاد ومجدها.

المرحلة الدقيقة العسيرة :

إن المحنة التي كانت تواجهها تركيا في أواخر القرن التاسع عشر مع أنها كانت أول تجربة لبلد إسلامي من نوعها، وكان قد مر المجتمع الإسلامي من قبل بنوعين من التجارب :

كانت التجربة الأولى التي مرّ بها المجتمع الاسلامي في القرنين الاول والثاني، هي أن المجتمع الاسلامي كان قوياً فتياً دافقاً بالحيوية وصلاحية التقدم، وكانت ترافقه حركة لاتزال في سبيل الغزو والانتصار، و[illegible]ت بازائه الحضارتان القديمتان العظيمتان، إحداهما : الحضارة الرومية واليونانية في الغرب، والثانية : الحضارة الإيرانية في الشرق – وكانت الحضارتان غنيتين في العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية، وفي أرقى أساليب المدنية والاجتماع، والمجتمع الاسلامي الذي كان بعيداً عن كل نوع من أنواع « مركب النقص » وحافلا بالثقة [illegible]اد بالنفس، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه، وينسجم مع

طبيعته ويفي بحاجته ، بدون أن يصاب بالرق الفكري والدهشة والخضوع الزائد ، أخذ جميع ما يناسبه ويجدر به ، والذي رآه غير جدير به صاغه في قالبه اولاً ثم وضعه في مكانه ، ولم يجن هذا الاقتطاف المحدود والتلقي على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته .

والتجربة الثانية هي التي مرّ بها هذا المجتمع الاسلامي في القرن السابع عندما استولى التتار على قلب العالم الاسلامي ومركزه ، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومفتوحين سياسياً ، وواجه المجتمع الاسلامي في ذلك الحين فاتحاً كان فقيراً قليل البضاعة في الحضارة والمدنية والعلم والصناعة والقانون والتشريع . لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة . وكان من الناحية المدنية والاجتماعية والرقي الفكري في حالة بدائية شأن الامم الوحشية وسكان الصحارى . لذلك لم يكن هناك أيّ معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الاسلامي المفتوح في حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه ! بالعكس من ذلك بدأت الامة الفاتحة تتأثّر يوماً فيوماً بالامة المفتوحة . تتأثّر شيئاً فشيئاً بحضارتها ومدنيتها وعلومها وصناعتها وطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة وعقائدها الدينية السامية وأفكارها النبيلة . وأخيراً اعتنقت تماماً دين الامة المفتوحة وحضارتها . وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية للاسلام ورفعت رايته بحماسة وتفان .

ولكن الوضع الذي واجهه الاتراك العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين، إنهم وإن كانوا يحكمون

مملكة حرة واسعة الارجاء ، ولكنهم فقدوا ـ الى حد ـ روح الثقة بالنفس وعرفان الذات بمر العصور وكر الليالي والدهور ، لم يكن فيهم حماس القرون الاولى ولا قوة الإيمان واليقين، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة ، كانت قد حملت معها ثورة صناعية وعلمية وفكرية كانت تتوسع آفاقها ونطاقها يوماً فيوماً ، ولم يكن يستطيع الاتراك أن يغمضوا أعينهم عنها وكان مركز حكومتهم في قلب اوربا، ولم يكن لهم سابق لمثل هذه التجربة في التاريخ الإسلامي الماضي ، ولا يجدون توجيها للتغلب على هذه المشكلة من تجارب الامة الماضية وتاريخها الطويل، فإن الوضع الذي كانوا يواجهونه كان بدعاً وكان وليد ظروف وعوامل خاصة وزمن خاص ، ولا يساعدهم في ذلك العالم الإسلامي المعاصر الذي لم يجرب هذه المحنة من قبل ، وكانت أنظار قادته متجهة الى تركيا ، كيف تخرج من هذه المحنة وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأي طريق تختاره ؟

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة بنجاح يحتاج الى ذكاء وقّاد ومعرفة صحيحة عميقة للإسلام والحضارة الغربية في وقت واحد ، وشجاعة أدبية وبطولة ، وكان ذلك عملا عملاقاً في الواقع ، وكان لا بد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامي كله على استعداد تام لاتباعها والسير في ركابها، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامي الحضاري والفكري، الديني والسياسي الى حد كبير، ولم يكن ذلك يقبل أي تأجيل او إهمال، ولا يمكن أن تمر به تركيا مراً خاطفاً سريعاً .

الطائفتان القديمة والجديدة :

وكانت هذه المهمة الدقيقة إما تنوء بها الطائفة القديمة او الطائفة الجديدة ، فقد كانت تركيا موزعة بين هاتين الطائفتين وهما اللتان تتوزعان القيادة والمسئولية ، أما الطائفة القديمة فقد كانت مؤلفة من العلماء القدامى ، الذين لا يعرفون مع الأسف المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة الى حد كبير ، ولم تكن تعرف خطورة الموقف وضخامة الخطر الذي نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من اوربا ،وكانت هذه الطائفة قد عارضت التنظيمات العسكرية والاصلاحات الجديدة التي قام بها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩م ـ ١٨٠٧) وخليفته السلطان محمود (١٨٠٨م ـ ١٨٣٩) لتؤهل تركيا لمجاراة الشعوب الاوربية عسكرياً وعلمياً ولمسايرة العصر الحديث .

أما الجيل الجديد، الذي كان قد تلقى ثقافته في عواصم اوربا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين واليأس من مستقبله،وكراهة رجاله واحتقارهم،وعلى تقديس الحضارة الغربية ، وفُقِد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها،وجوانب الافراط والتطرف ، ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الاسلامي اقتباسه والافادة منه ، وما لايصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها في العالم ومركزها في الشرق الاسلامي ، وأكثرهم من نوع « العسكريين »

والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة [١] أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة، وما لقوا من العلماء و « المحافظين » من تثبيط او عدم تشجيع،وما جرّبوه فيهم من جمود وضيق تفكير، وما رأوه في الجيل المسلم القديم ، وزعمائه من النفاق ، يقولون ما لا يفعلون ، وينهون عن شيء ويأتونه ، او ما شاهدوه في البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك الى الثورة على كل قديم ، وعلى كل موجود، وإلى التصميم على « تغريب » تركيا .

ضياء كوك ألب وفلسفته :

ضياء كوك ألب ولد في ديار بكر بعام ١٨٧٥ م او ١٨٧٦ م وكانت أُسرته مرتبطة بوظائف رسمية رفيعة،التحق بالمدرسة الثانوية لديار بكر بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية العسكرية،وكان له ولع خاص وشغف زائد بالأدب والرياضيات ، وكان على معرفة جيدة بالتاريخ ، وتلقى في المدرسة نفسها اللغة الفرنسية والعلوم الشرقية ودرس بإشراف عمه الفاضل وتعاونه مفكري الاسلام : الغزالي والرومي وابن عربي وابن

(١) تقول الفاضلة خالدة اديب خانم في كتابها « الصراع في تركيا بين الغرب والشرق »: كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الشبان من صغار الموظفين الرسميين ، أو ضباطا في الجيش ، ولم يكن فيهم في أول الأمر فرد واحد،حائزاً على مكانةعلمية سامية ، ويفهم الفرق بين العصر القديم والعصر الحديث فيضوء التحليل والنقد العلمي، ولكنهؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى الشعب وكانوا انتاجاً وطنيا خالصاً،وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعيةوالقسوة، ولا يتحاشون من شيء في سبيل الوصول إلى غايتهم . لذلك رغم أنهم كانوا يهدفون إلى غاية نبيلة ، كانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير احتشام وتورع .
Conflict between East and West in Turkey P 78 - 79 .

رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم ، وقد أُعجب بكتاب « المنقـذ من الضلال » للإمام الغزالي لانه أيضاً كان يعاني صراعاً فكرياً ، وكانت الافكار التي قامت عليها الثورة الفرنسية تسيطر على كثير من الشباب المُثقف وتحرك ساكنهم،وكان مدير المعهد الذي يدرس فيه ضياءيحمل أفكاراً حرة ويحِـبّ الحرية الفكرية والعملية ، وكانت ديار بكر في ذلك الحين مركز جماعـة من الزعماء ومحبي الحرية الاتراك الذين نفوا عن البلاد ، وارتبط معها ضياء بوشائج وثيقة متينة،وهناك قرأ ضياء مقالات لنامق كمال وضياء باشا واحمـد مدحت أفندي وغيرهم وازداد ارتباطه بالحركة السرية بعد قدوم عبد الله جودت ، وكان دكتوراً كردياً ملحداً ، وكان معجباً بهيكل (Haeckel) وبشنر (Buchner) واسبنسر (Spencer) ولي‌بون (Le Bon) إعجاباً كبيراً ، وقدحدث لديهفي ذلك الزمن صراع العقيدة والعقلية بتأثير من أُستاذ يونانيوأراد ان يطمئن ويخفف من قلقه بالفلسفة والتصوف الاسلامي ولكنه كما يقول : لم ينجح فيه ، ووقع في ارتياب وشك (Agnosticism) سافر في سنة ١٨٩٦ م الى قسطنطينة ، ولم يجد منحة إلاّ في كليـة البيطرة (Veterinory College) ولكنه كان يشتغل بالسياسة أكثر من الثقافة، والتعليم ، لذلك انتخب عضواً لجمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمـل في السر كالماسونية وقد أُقصي من المدرسة لبعض مقالاته الثورية وأُلقي القبض عليه ، وفرضت عليه إقامة جبرية في ديار بكر بعـد إطلاق سراحه ، ودرس في هذه المدة دراسة عميقة ، وكان له شغف وعناية

خاصة بالفلسفة الغربية والفرنسيةخاصة وعلم النفس وعلوم العمران، وأصبح بسرعة شخصية قوية رئيسية لجماعة أحرار ديار بكر ومحبي الانطلاق والحرية ، وثارت هـذه الجماعة في عام ١٩٠٦ م ضد النظام الجائر والسلطات الإدارية يقودها ضياء ، وبعد أن خُلع السلطان عبد الحميد خان بعام ١٩٠٩ م وجد ضياء وزملاؤه فرصة سانحـة للعمل ، وأصدر جريدتين « بيام » و « Decle » .

وعنـدما آثر ضياء سالونيكا بالإقامة المستقلة . صار زعيما وطنياً لتركيا ووجد هنا في ثغور تركيا الغربية فرصة اللقاء والتودد إلى المتنورين الاتراك، والافاضل الغربيين ، وترعرت فيه فكرة الوحدة والتنظيم على أساس القومية التركية التي لم يكن الإسلام فيهـا عنصراً أساسياً (Factor) وقد انفصلت عن حكومة تركيا بعض الاقطار الإسلامية (البانية بعام ١٩١٢ م والحجاز بعام ١٩١٦ م) على أثر حرب بلقان ١٩١٢م. وظهر بذلك أن الحركة القومية والطورانية هي أقرب الى الواقعية والعملية وكسبت أنصاراً أكثر وقد قوي وتوسع نطاق التأثير الفكري لكوك الب في الجيل التركي الجديد، عندما عُين الاستاذ الاول لعلم الاجتماع بجامعة استنبول عام ١٩١٥م (وذلك بمواهبه الشخصية وكتابته مقالات بلا شهادة عالية او تخرج في جامعة) وقد اضطر عام ١٩١٨ م كالزعماء الوطنيين الاتراك الى أن يغادر استنبول، ولما انتصر مصطفى كمال بعام ١٩٢١م على اليونان أُفرج عنه ، وعُيّن بسنة ١٩٢٢م رئيساً للجنة التأليف والترجمة،وكان يؤيد مصطفى كمال بقوة وحماس،

وقد لعب دوراً كبيراً في المعركة الانتخابية،مع أن الاواصر الشخصية بينهما لم تكن عميقة قط ، ولما انتخب البرلمان في سنة ١٩٢٢ م كان نائب ديار بكر، وقد مرض بعام ١٩٢٤م،وأراد كمال أتاترك أن يتكفل جميع تكاليف علاجه في اوربا ، ولكن كوك الب اعتذر عن ذلك وطلب العناية بأسرته والعطف عليها ، وتهيئة وسائل لنشر كتابه عن الحضارة التركية ، وقد توفي ضياء في ٢٥ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ م في الثامنة والاربعين او التاسعة والاربعين من عمره ودفن بمقبرة السلطان محمود[١] .

وجد مثل هذا الرجل الذي دعا بكل قوة وصراحة الى سلخ تركيا من ماضيها القريب ، وتكوينها تكويناً غربياً قومياً خالصاً ، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الاتراك — على زعمه — في تكوينها وحراستها ، يقول في مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر الابيض المتوسط القديمة ، وكان مؤسسو هذه الحضارة — التي نسميها بحضارة البحر الابيض المتوسط — من الاتراك، مثل السماريين، والفينقيين، والرعاة، لقد كان في التاريخ عصر طوراني قبل العصور القديمة ، لان سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجدادنا ، وفي زمن متأخر جداً رقى الاتراك المسلمون هذه الحضارة ونقلوها الى الاوربيين. وبتحطيم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية. أحدث الاتراك انقلاباً في تاريخ اوربا.

(١) استفيد من كتاب : Foundations of Turkish Nationalism
لمؤلفه : (Heyd U.)

لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية ولنا سهم فيها[١] » .

ويذكر موجبات اعتناق الحضارة الغربية وما يحدث ذلك من انقلاب . وما يفيض من قوة وروح جديدة . ومركز في العالم . وأنه لا يستلزم الانسلاخ من الدين القديم . فيقول :

« حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها . ترى من الواجب ان تغير حضارتها ايضاً . لما كان الاتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الاقصى . ولما انتهوا الى عصر « السلطنة » دخلوا في مساحة الحضارة البزنطية . والآن في طور انتقالهم الى الحكومة الشعبية ، هم مصممون على قبول حضارة الغرب[٢] » .

« إن شعوباً تدين بديانات مختلفة يمكن ان تدين بحضارة واحدة . إن اليابانيين واليهود يشاركون الاوربيين في حضارة واحدة[٣] » .

وبعبارة أخرى فالدين والحضارة عنده شيئان مختلفان . لذلك من المغالطة ان تسمى « حضارة إسلامية » كما لا يصح ان تسمى « حضارة مسيحية » . الدين محدود في العقيدة والطقوس التي لاصلة للفنون والعلوم بها . يقول :

« ليست هنالك مؤسسة مشتركة بين الاحزاب والجماعات التي ترتبط بالاديان المختلفة . فما كان الواقع ان الدين اسم لمجموعة من المؤسسات المقدسة والعقائد والتقاليد فحسب . فالمؤسسات التي لا تحمل قداسة

(١) Turkish Nationalism and Western Civilisation . P . 267

(٢) أيضاً P . 261

(٣) أيضاً P . 269 - 270

وتمجيداً دينياً (كالافكار العلمية التطبيقية والأدوات الصناعية ومُثُل الجمال) تؤلف نظاماً مستقلاً يخرج عن نطاق الدين ، والعلوم الإيجابية كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم الحياة وعلم النفس والاجتماع والطرق الصناعية والفنون الجميلة لاتمتُّ بصلة الى الدين ، لذلك لايصح أي ارتباط لحضارة بالدين ، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة إسلامية ، فكما أنه لايصح أن تسمى الحضارة الغربية حضارة مسيحية هكذا بالضبط لايصح أن تسمى الحضارة الشرقية حضارة إسلامية »[١]

ويضرب لهذه الخطوة الثائرة مثلاً لروسيا التي احتضنت الحضارة الغربية الراقية ، رغم خضوعها للكنيسة المسيحية المتصلبة المحافظة الأرثوذكسية ورغم تمسكها بحضارة من الطابع الشرقي، واستطاعت أن تقف بجوار الشعوب الغربية القوية الحُرة .

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كان المسيحيون الخاضعون للكنيسة الارثوذكسية في روسيا لايزالون عبيداً لها، وقد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة في كفاحه لتحرير الشعب الروسي من سيطرة الحضارة البزنطية ، وتقديمه إلى الحضارة الغربية ، ولكي يعرف الإنسان ماهي الوسائل والأساليب التي يجب أن تستخدم لتغريب البلاد وطبعها بطابع الغرب يكفي أن يدرس تاريخ إصلاحات بطرس ، وكان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين ان الروسيين

(١) Turkish Nationalism and Western Civilisation . P .271 ,272

لايصلحون للتقدم ، ولكنهم بعد الثورة بدأوايتقدمون بسرعة زائدة، ويقطعون شوطاً بعيداً في ميدان النهضة ، وهذه الحقيقة التاريخية تكفي لإثبات أن الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلى التقدم [١] »

ثم هو يقرر أنه لابد للحرية والمحافظة على المجد القومي من امتلاك ناصية الحضارة الغربية والسيطرة عليها فيقول :

« علينا أن نختار إحدى الطريقين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين ، يجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لندافع عن حريتنا واستقلالنا [٢] ».

يَحتلّ ضياء كوك الب مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين لتركيا الجديدة ، إنه قدم الأساس الفكري والفكرة الجديدة التي تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية والأساسية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ نيازي بركس في مقدمة مجموعة مقالاته المختارة التي نشرها ، وقال إنه لاتزال تسيطر فكرته على أسس الإصلاحات الجديدة في تركيا ، هو يقول :

« ورغم أن ضياء كوك الب توفي في المرحلة البدائية لتطوير أتاترك الثوري ، ولكن توجد في كتاباته أفكار تعتبر أسساً لتلك الإصلاحات وان أفكاره في موضوع الإصلاح الإسلامي قد جنت عليها العلمانية المتطرفة في العهد الذي بدأ بعد وفاته . مع ذلك أعتقد أنه لو عاش

(١) ص ٢٧٥

(٢) ص ٢٦٦ Turki

لاستطاع أن يرضي نفسه بسياسة أتاتورك وموقفه لأن تصوراته عن الخلافة كانت تختلف عن نتائج فكرته القومية المنطقية ، وكان يتخيل القومية التركية كأساس دولي عالمي ويرى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية ، ونحن نعلم أن نقاط العلمانية وحرية الإرادة والضمير وحرية الفكر في الدستور كانت من تفكيره وقلمه ، لأن اللجنة التي ألفت في سنة ١٩٢٤ م لوضع الدستور الأساسي كان هو عضواً فيها ، ولعلّه لم يستطع أن ينسجم مع السياسة الثورية للإصلاح المثالي التي اتخذها كمال أتاتورك ، . . . ورغم أنه كان هنالك بعض انحراف عن أفكاره في العمل والتطبيق مع ذلك لاتزال مبادئه تسيطر على النقاط الأساسية لإصلاحات تركيا الجديدة [١] » .

ويزيد المؤلف المذكور فيذكر أعمال ضياء كوك الب وأفكاره العلمية ويقرر أهميته كقائد مفكر ومؤسس مدرسة فكرية : —

« ومع أن دراساته عن الاجتماع والمدنية الشعبية والتاريخ ليست لها قيمة علمية كبيرة إذا قورنت بمؤلفات علماء تركيا الحاضرة وغيرها ولكنه لايستهان بقيمته كزعيم لهذا الاتجاه ومؤسس هذه المدرسة ، ولو أن بعض مفاهيمه نسيت أو أغفلت في تركيا الجديدة أو أنها تعتبر اليوم تافهة ولا يلاحظ فيها ابتكار وطرافة ، مع أنها كانت تبدو في عصره جديدة ومبتكرة فذلك لأنها أصبحت الآن حقائق ، ويتجلى من ذلك عمق تأثيره وسعة أفقه ونظره [٢] » .

(١) Berkes Niyozi Turkish Nationlism and Western Civil - ization (Gokalpziya) P. 13, 14

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ و ٣١

دور تركيا التقليدي :

إن قادة هذا الفكر والدعوة التي يتزعمها ضياء كوك الب ، كانوا يستحقون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، ورجال الفكر الأحرار في العالم الإسلامي ، وإن تركيا كانت تحتل مركزاً خطيراً في خريطة العالم السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، وقد تُغير مجرى التاريخ إذا سيطرت على الحضارة الغربية ، وامتلكت ناصيتها تقودها وتسير بها إلى غاية مرسومة ، وتتصرف فيها تصرف القائد الحر ، الذي يملك إرادته ، والعالم المجتهد الذين يفكر بعقله ، وكانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقية الإسلامية التي تعاني الصراع المخيف ، بين الشرق والغرب ، وتواجه تحدي الحضارة الحديثة السافر ، وتنظر إلى تركيا كزعيم وإمام ، وأول من اكتوى من الشعوب الإسلامية بنار هذا الصراع بين الغرب والشرق وواجه زحف الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الحديثة .

ولكن ذلك ــ مع الأسف ــ لم يتحقق ، إن الذي تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربية وتمسكها ببعض شعاراتها ومظاهرها السطحية ، والإصلاحات السطحية التي لاتقدم ولا تؤخر في حياة الشعوب والأمم والمجتمعات والمدنيات ، ولا صلة لها بالقوة الحقيقية والعظمة السياسية ، والتي فصلت تركيا عن ماضيها القريب ، وعن التراث العلمي الفني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، وفصلت تركيا ــ زعيمة العالم الإسلامي بالأمس ــ عن العالم الإسلامي ، وأحدثت

فجوة عميقة بين رجال الحكم والتوجيه ، وبين الشعب المسلم القوي ، الفائض بالحب والإيمان والعاطفة الدينية ، الذي ملأ قلوب العالم مهابة وإجلالاً لقوة هذه العاطفة وتدفقها ، واستطاع أن يقف في وجه أوربا وغاراتها الساحقة ، ومؤامراتها الدقيقة المستمرة،التي لم تنقطع ولم تقف يوماً واحداً ، والتي لا قِبَل لأمة عاديةبها ، رغم الضعف الشديد المستمر في الطبقة الحاكمة ، والخيانة في الضباط ، وأفقد الشعب النشاط والثقة والحماسة التي كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الخالد ، وأحدثت اضطرابا في المجتمع وفتوراً في إجابة الدعوات التي تصدر من القيادة ومركز الحكم ، واحتاجت الحكومات المختلفة إلى كبت هذا الشعور وكبح هذه العاطفة ، وتحويل الأمة إلى المادية والقومية والحضارة الغربية ، والانحصار في دائرة التفكير الضيقة والمساحة المحدودة، كل ذلك بعنف وقسوة لانظير لها ، ذهب ضحيتهارجال كان فيهم الغناء الكبير للأمة ، والخير الكثير للبلاد ، ولايزال الصراع قائماً بين العقلية الحاكمة وعقلية الشعب المغلوب على أمره ، ولا تزال الشرارة ـ الإيمانية ـ كامنة في النفوس والقلب ، مستعدة للالتهاب بأدنى حركة وأضعف إشارة .

إن دور الشعب التركي في اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليدياً يخلو من كل « أصالة » ومن كل ابتكار ، ومن كل عصامية ، ومن كل انتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التي انطلقت من الغرب المادي ، السيطرة التي دعا إليها ، وحلم بها ، ضياء

كوك الب ، في مقالته السابقة، ولم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها والتغلب على قيادتها ، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق ، لاأقل ولا أكثر، ولم ينبغ فيها في هذه الفترة نابغة ، في العلوم التطبيقية ، ولا عملاق في العلوم والآداب ، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، ولا من يمدّ هذه الحضارة بشيء أصيل له قيمته العلمية ، ولذلك بقيت شعباً متوسطاً يعيش على حاشية الشعوب الأوربية ، ولم يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، والدوافع الخلقية ، والزعامة في العالم الإسلامي .

نامق كمال :

ولد نامق كمال في (Rhobosto) في عام ١٨٤٠ م وكان ينتمي إلى أسرة ثرية ذات اليسار والغناء ، درس في بيته اللغة العربية والفارسية والفرنسية ، وتولى وظيفة رسمية في السابعة عشرة من عمره ، وقد أعجب في شبابه بالزعيم التركي الوطني والمفكر الشهير إبراهيم شيناسي (١٨٢٦ ــ ١٨٧١ م) وانضم إلى رئاسة تحرير مجلته الشهيرة « تصوير أفكار » ولما التجأ شيناسي إلى فرنسا في سنة ١٨٦٥ م أصبح مسؤولاً عن تحرير المجلة ، واشتهر ككاتب وصحفي سياسي ، واضطر أن يغادر الوطن عام ١٨٦٧ م لمقالاته وأفكاره الجريئة المتحمسة ، وقد قضى ثلاث سنوات من نفيه في لندن وباريس وفينا ، ودرس هناك وطالع القانون الجديد والاقتصاد ، وعاد في ١٨٧١ م إلى تركيا ، ونفي

مرة ثانية إلى قبرص من جرّاء التمثيلية الطائرة الصيت التي كتبها وسمّاها « الوطن » والتي بعثت في قلوب النّاس الحماس الوطني، وعاد في سنة ١٨٧٦ م بعد أن خلع السلطان عبدالعزيز، ولكن نقمت عليه الحكومة بعد مدة يسيرة ، وتوفي في عام ١٨٨٨ م بعد أن قضى عامه الأخير من حياته في النفي .

ويقول برناردلويس Bernardlewis في كتابه : (The emerge New of Modern Turkey) « كان نامق كمال مسلماً صادقاً متحمساً مع حماسته الوطنية وفكره ، إن الوطن (تركيا) الذي يتغنى به في مقالاته وإن كان أساسه على الإقليم ولكنه عنده وطن إسلامي خالص كما أن الدولة العثمانية عنده دولة إسلامية خالصة ، وقد ظل مرتبطاً طول حياته بكل قوة وإخلاص بقيم المسلمين وعقائدهم الموروثة ، وقد انتقد زعماء التنظيمات انتقاداً لاذعاً في كثير من الأحيان وعاب عليهم أنهم أخفقوا في الحفاظ على التقاليد الإسلامية القديمة ، وأنهم استوردوا من أوربا الأفكار « والمؤسسات » الجديدة .

وقد حمل نامق كمال لواء القيم الإسلامية وقد انتصر للإسلام وأبرز فضله ومآثره رداً على أولئك المؤلفين الذين كان لايزال ديدنهم الحط من شأن الإسلام وقدّم فكرة الاتحاد الإسلامي العالمي في قيادة العثمانيين الأتراك ، لأنه كان يعتقد أن هذه الحركة إذا انتشرت في آسيا وإفريقيا ووجدت أنصاراً أصبحت كتلة قوية إزاء الكتلة الغربية ، فيحدث بذلك توازن القوى في العالم .

وكانت دعـوة نامق كمال الذي سبق ضياء كوك ألب إلى الإفادة من الحضارة الغربية والعلوم الغربية ، وتفسيره للعلاقة التي يجب أن تقوم بين تركيا والغرب الجديد أكثر اتزاناً و أكبر عمقاً ، من دعـوة ضياء كوك ألب وأنصاره ، فقد دعا نامق أمته وبلاده إلى الإفادة من الغرب في المجالات التي يرجع إليها الفضل في تقدم الشعوب الغربية وفي رخائها وسيادتها ، وكانت السبب المباشر لتفوق الغرب ومكانته في العالم .

يقول الأستاذ نيازي في مقدمته على «مجموع مقالات ضياء كوك ألب »

إن الرجل الذي وفق في وصف الوضع الحاضر وتحديد ضعفه وعلته واعتبره عرقلة كبيرة في تأسيس دولة جديدة كان ذلك نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨م) إنه حاول أن يعرض صورة مثالية «للمؤسسات» الدينية والأخلاقية والقانونية التي تنسب إلى الإسلام ، وعرض صوراً مثالية أصيلة للمؤسسات السياسية أيام ازدهار التقاليد العثمانية القديمة وأبرز نواحي الحضارة الغربية التي تدين لها الشعوب الأوربية في تقدمها ورخائها وسيادتها ، ووصل بعـد دراسة هذه العوامل الثلاثـة إلى أنه لا يوجد بينها خلاف أساسي ، إنـــه يعتقد أن الإسلام يهيىء الأسس الخلقية والقانونية للمجتمع ، وكان يرى أن أفضل طريق لتركيا الحديثة أن تتخذ التقليـد العثماني وسياسة التسامح الواسع التي كان يعامل بها العثمانيون القوميات المختلفة والديانات المختلفة كأساس ودعامة للجهاز السياسي ، وأن تأخذ من الغرب المناهج والأساليب المادية التطبيقيـة التي تمنح هذا النظام قوة ومناعة في العـــالم المعاصر الذي يقوم على التق[illegible] اقتصادي .

هكذا أفرز نامق كمال عوامل تركيا الثلاثة في القرن التاسع عشر وبين حدودها ومعالمها ، وكان العامل الأكبر لإخفاق التنظيمات في رأيه هو الاضطراب الفكري في موضوع العوامل الثلاثة هذه ، فقدهجرت الشريعة أي القانون الإسلامي مثلاً لأجل اقتباس القانون الفرنسي ، مع أنها لم تقتبس الأساليب والطرق الغربية للتعليم والحكومة والعلوم والاقتصاد والزراعة .

وقد خضع دعاة الإصلاح الذين كانوا ينتمون إلى « تنظيمات » في أمانيهم الصبيانية لتحويل الدولة التركية دولة جديدة للحكومات الغربية وحملوا مِنّتها في دائرة الاقتصاد والسياسة من غير حاجة إلى ذلك ، وقد فقدت بذلك الدولة العثمانية حُرّيتها وسلامتها ، لم يطبّق هؤلاء الدعاة أي مبدأ من مبادىء النظم الديموقراطيّة الجديدة في مجال الإدارة والتنظيم ، مع أنه لم يكن شيء في المؤسسات السياسية العثمانية القديمة ولا في التشريع الإسلامي ، ما يستحيل انسجامه مع الديموقراطيّة أو التقدم أو العلوم التطبيقية[١] » .

ولكن مع الاعجاب العام بنامق كمال والتأثير العميق الذي تركه في الجيل التركي الجديد وفي ضياء كوك ألب نفسه ومعاصريه الذي اعترفت به خالدة أديب خانم بهذه الكلمات :

« كان نامق كمال يتمتع بأكبر إعجاب وإجلال في تركيا ، إنه لم يُتغن

(١) Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Westeren · Civilization,(Gokalap, Ziya) P . 17 , 18 .

بأحدفي تاريخ الأفكار والسياسات التركية مثل ما تغني به ولم يهم الهائمون بأحد مثل ما هاموا به[١] » .

لم تؤثر دعوته المعتدلة وفكره القويم في تكوين تركيا الحديث ولم تلعب دورها مثل مافعلت دعوة ضياء كوك ألب المتحمسة المتطرفة لاعتناق الحضارة الغربية وأسس سياستها، وكان ذلك لأنه وجدت لفلسفة ضياء وفكره ولتنفيذه شخصية قوية إيجابية في تركيا، حققت أكثر ما أراده ودعا إليه ضياء كوك ألب وصممت على سبك تركيا الإسلامية في الغرب العلماني اللاديني كانت هذه شخصية كمال أتاترك .

كمال أتاترك ، نموه الفكري ، طبيعته وعقليته وخصائصه الطبيعية :

ولد مصطفى كمال باشا بن علي رضا بك بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨هـ ١٨٨١ م ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربي الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة ثم تركها ودخل مدرسة حربية، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستانبول وتخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، ودخل في بعض المؤامرات ضده ، فقبض عليه ونفي إلى دمشق وهرب منها إلى سلانيك ، والتحق بجمعية « الاتحاد والترقي » والتحق بالجيش، وعهد إليه بالإشراف على سكة حديد مقدونية ، وخُلع السلطان عبد الحميد ١٣٢٧ هـ ـ ١٩٠٩ م .

سافر عام ١٩١٠ م إلى فرنسا كملحق عسكري لمهمة عسكرية، وقد

---

(١) Halide Edib Turkey Faces West, P. 84.

جعله هذا السفر لا يطمئن إلى ما حققته تركيا من التقدم والازدهار ، واضطرب لازدياد نفوذ ألمانيا، وكان يحكم تركيا في ذلك الوقت أربعة أشخاص فعلاً وهم: أنور وطلعت وجاويد وجمال، وكان معهم مصطفى كمال على خلاف شديد، ولم يكن له شغف ولا هم بالأهداف الدولية ولا في توسع نطاق الحكومة العثمانية في خارج تركيا، وكان يرى هذه السياسة للبلاد خطراً ، وكان أنور يكرهه بدوره ونشبت حرب بلقان في سنة ١٩١٢ م ، وقد تأثر بشقاء فئات اللاجئين والمهاجرين الأتراك من المدن البلقانية وبؤسهم تأثراً كبيراً ، واسترد الأتراك أدرنا لخلاف نشأ بين الأقاليم البلقانية ، وعيّن أنور وزير الحربية وقد بلغ قمة الرقي والمجد، وكان أنور يسعى لجمع المسلمين كلهم تحت لواء خليفة المسلمين ، وقد فوض أنور مسؤولية تنظيم الأمور العسكرية إلى الألمان، وكان مصطفى كمال يكره ذلك كرهاً شديداً، ونشبت الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤م وحالفت تركيا ألمانيا تحت ضغط أنور وزملائه وخاضت الحرب ، وكان كمال يرى أن تلتزم تركيا الحياد وتستفيد من الكتلة التي تفوز في هذه الحرب ، وحارب كمال في جوار زملائه وقواده بشجاعة وبطولة على رغم اتجاهه ورأيه في هذه الحرب ، وكان له موقف عظيم في معركة نابيولي سنة ١٩١٥ م فذاعت به شهرته ، وأرسل في سنة ١٩١٦ م إلى جبهة قفقاس، وفوضت إليه قيادة الجيش في الحجاز في بداية عام ١٩١٧م، ولكن تخلت الجيوش العثمانية عن الحجاز قبل أن يستلم كمال مركزه ، ومنح في هذا العام رتبة اللواء وأرسل إلى ديار بكر نائب القائد .

وانتهت الحرب سنة١٩١٨م بهزيمة ألمانيا وتركيا، واحتلت انجلترا وحلفاؤها استانبول، واضطرب الأمن في بلاد الأناضول، فاختير كمال ليقوم بحفظ النظام سنة١٩١٩م وأعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على أزمير وانتصر عليهم سنة ١٩٢١م في معركة سقارية ولقب بالغازي، وأقام في أنقرة حكومة مستقلة، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان، وأقام حكومة جمهورية علمانية كان أول رئيس لها سنة١٩٢٤م واستمر على ذلك حتى توفي سنة ١٩٣٨ م.

إن العلمانية والثورة على الماضي والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية التي آلت إليها تركيا لا تُفهم العوامل التي ساعدت عليها والدوافع التي دفعت إليها في زعامة كمال أتاترك إلاّ بمعرفة طبيعة زعيم هذه الحركة الأكبر ونشأته الفكرية وتطورها وطبيعته وميوله، لأن البلاد التي تخضع لدكتاتور عسكري تصبح مرآة لشخصيته وطبيعته وظلاً وامتداداً لميوله وعقائده مع الدعاوي البرّاقة للشعبية والجمهورية، ويحتاج لفهم نظمها الجديدة فهم العناصر التي تتكون بها شخصيّة هؤلاء الأنانيين والدكتاتوريين، وبهذه المناسبة نقتصر على أن نقدم قطعاً من كتاب «أتاترك[1]» (لعرفان أوركا) الذي ألفه عن إخلاص وإعجاب بشخصيّة كمال وهي تصوره تصويراً لا مبالغة فيه ولا تشويه :

« — كان قليل الاختلاط، غير محب بين الأصدقاء في حياته المدرسية وكان أصدقاؤه قليلين جداً، كان يثور ويهيج بسرعة، وكان في صفه

(١) Irfan Orga Margarete : « Ataturk » (Michael Josefh Ltd, London) 1962

طالباً مثالياً ذكياً مجتهداً متواضعاً، وكان شديد الغرام بالإناث ، يجذبه هذا الجنس (Sex) كالمغناطيس .

وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بهـا فإنه لا يجـد ما يسلي به نفسه وروحه ، كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بهما[١] » .

« وكان يشعر بفرح وسرور حـين يعتدي على الآخر ويسطو به وكانت هذه طبيعته التي فطر عليها، وقد تجلت هذه الطبيعة في تصرفاته.

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحداً يوازيه وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادتـه وهواه ، وكان يحب أن يبقى على القمة دائماً ، وقـــد اطلع على كتابات والتر ، وروسو ، في منـاستر التي بعثت فيـه روح الثورة وأيقظت فيـه عواطفها الخامدة[٢] » .

« ــ وقد هضم في شبابه مع أفـكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضماً جيداً ، وقد كافح ضياء كوك ألب للتنور والحرية الدينية، وكان رائد التنور الفكري الغربي، وقد تكهن في سنة ١٩٠٠م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب حبلها ، وأنه واقع لا محالة لأنها عضت بالنواجذ على أسس الحكومة الفردية ، وكان يقول في أكثر الأحيان : « إن الحكومة الدينية حليفة وفية للحكومة الفردية دائماً » وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصاراً قوياً، وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة و يُحْظر على الأحزاب المتحمسة للدين

(١) P . 251

(٢) P . 246

ويُضيق الخناق عليها لأنها (كما يقول) تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد ، وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة وإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون الإسلامي ويفسّرونه ، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم المدنية ـ »[١] .

ويقول متحدثاً عن ما كان يضمره ويعتقده كمال عن الدين عامة ، وعن الإسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره في كل ذلك :

« ـ قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين ، فإنه منافسه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله ، إنه اسم غامض خدّاع مجرد عن كل حقيقة وكان لا يؤمن إلاّ بالمشاهد المحسوس[٢] ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملاً هداماً في الماضي ، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة ، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذي أسس الإمبراطورية العثمانية الواسعة ، وكان يرى أن النّاس قد أصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام، وكان يبغض الرجل الذي يخضع للقضاء والقدر ويقول : « هكذا أراد الله » « وهذا الذي قُدّر لي» وكان يعتقد أنه لا وجود للإله، والإنسان يصنع قدره، وكان يقول في أكثر الأحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قسوة » الإله ، ولكن يقول المتدينون: « الله يمهل ولا يهمل » كان يقول : ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التي تشتغل

(١) P . 251

(٢) وقد ذكر المؤلف في كتابه أن كمال في آخر عهده كان يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخراً مهدداً .

بسرعة ؟ » وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين في تركيا ، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة وإلى الخدعة والتضليل ـ »[١] .

ويقول في موضع آخر : ـ

« ـ ولم يكن لديه معنى لمبادىء علم النفس وللنظريات والفلسفات، لذلك لم يمنعه شيء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئاً لا حاجة إليه ، ولكن الذي أعطاه للأمة التركية عوضاً عن الدين هو « الإله الجديد » أي الحضارة الغربية،وليس من الغريب أن الأمة قد حاربت لروحها وقد تعلم درساً من تاريخ المدنيات الأخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر (لذلك لا تخرج عقيدة الإله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة) ـ[٢] » .

ويقول في موضع آخر :

« ـ وكان يبغض الإسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضاً شديداً، وكان يقول يجب أن نكون رجالاً من كل ناحية ، قد قاسينا خطوباً ومصائب عظيمة وكان السبب في ذلك أننا عشنا في عزلة عن الحياة ولم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لا نحتفل بما يقول الناس ، نحن في طريق الحضارة والمدنية ، ويجب أن نعتز بذلك ونفتخر، انظر الى المسلمين في نواحي العالم الإسلامي ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار ، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرفة ، وهذا سبب بقائنا مدة طويلة في

---

(١) P . 237 - 238

(٢) P . 246

الحضيض ، ووراء الركب ، وتردينا الآن في الهوة السحيقة ، وإن استطعنا في السنوات الماضية أن ننجح إلى حد في إنقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت ، ولكننا لانتقف على مكان ، بل إننا نهضنا لنتقدم ونواصل السير إلى الأمام فليحدث مايحدث ، ليست لنا الآن طريق أخرى ، ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من لايخضع لها[١] .

ويذكر بغضه وعداءه للدين في موضع آخر ، فيقول :

« — لم يكن ذلك سراً أن مصطفى كمال لايدين بدين ، لذلك كان شائعاً بين الناس أن الخلافة ستلغى قريباً ، وقد فزع الناس حين شاع ان مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذي كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة ، ولم يكن جزاء ذلك إلا أن يلقى حتفه لساعته ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويدل ذلك على أن الزمن قد تطور كثيراً[٢] » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها في نظره من القدسية والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل في عروقه ودمه ، فيقول .

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلقن ويقول ويأمر به الناس ، وكان يعبد هذا الإله الجديد (الحضارة الحديثة) بحماس ولهفة وكان له عابداً وفيّاً ، وقد نشر هذه الكلمة « الحضارة »

---

(١) P 297

(٢) P 239

من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتّقد عيناه لمعاً وإشراقاً ، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة [١] » .

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية يُقدّر ذلك من الكلمات التالية التي يذكرها المؤلف :

« ــ يقول مصطفى كمال لشعبه يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أُمة كبيرة راقية ، ولا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأُخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار والزمن [٢] ــ »

« ــ كان يتصور تركيا متطورة مصوغةفي صياغة جديدة، ولكن المواد الخامة الإنسانية التي رزقها (الشعب التركي) كانت مجموعةبشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة ولم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون في الخدمة العسكرية جديداً ، بدأ يشتغل وحيداً وهو دافق بالحياة لا يثق إلاّ بنفسه لا يهدأ ولا يستريح ، وقد أصبح التدخل في شئون غيره عادة وهواية له ، وكان ممتلئاًبالحيوية والقوة الفكرية [٣] ــ»

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس ، وألزم ليس القبعة على الرأس عوضاًعنه وذلك لكيينصبغ الشعب التركيبصبغةالامم الغربية

---

(١) p. 273
(٢) P. 260
(٣) P . 244

بأسرع ما يمكن ، ويندمج بها اندماجاً كلياً ، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركي عنها .

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ في تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا ، وكأن سعادة الشعب كانت تتوقف على ذلك ، وكأنه الشرط الأساسي لمجد تركيا وكرامتها ، إن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية ، يذكر مؤلف سيرته التركي هذه المعركة ويقول :

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا ، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقاء في ميناء البحر الأسود ، وأقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب وفي أمكنة مختلفة للبلاد ، وبدأت تشتغل وتحكم ، إن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذي قبل ، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فيقلوب النّاس روح المقاومة والحماس الديني القوي ، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ورحمةً ومسامحةً في مناسبة ، وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن ، يلقى القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمون سواء .

إن كمال لم يؤنب المحاكم على اجراءاتها العنيفة ولم يتوقف في تحطيم إرادة الشعب .

وكان يقول في ذلك الحين في فخار و كبرياء : «أنا تركيا ، هزيمتي هزيمة

تركيا» وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقذ تركيا ، وقد كسبت معركة القبعة أخيراً ، وفازت الحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم ، وقد أرسل مصطفى كمال مندوباً من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت إلى المؤتمر الإسلامي بمكة المكرمة (١٩٢٧) ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره ، وكان أديب ثروت المسلم الوحيد الذي حضر المؤتمر وهو لابس قبعة ،وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة ـ »[١] .

ويذكر المؤلف ـ على كل حال ـ مميزات أتاترك الطبيعية وأخلاقه وصنائعه ويلقي ضوءاً على حياته بإيجاز ويقول : ـ

« ـ إنه جرب في حياته أحزاناً ويأساً ، وقل ما حظي بالفرح والسرور ، كان يحب الفقراء ويكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه في القوة والكفاية ، كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى ، وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه ، وإن كان هو يستغلهم لأهدافه وغاياته ،وكانت قد بلغت به قوة عزمه وعناده وتصلبه وصفاء عقله وفكره إلى قمة المجد ، وقد التقت طبيعته وعصره ،وتقدما جواراً بجوار وبلغا الأوج ،وكان سر عظمته أنه كانت أهدافه محدودة ومعينة : تأسيس دولة على طراز عصري في حدود معينة واضحة ، وكانت له ميزة بارزة وهي أنه كان لا يعدل عن فكرته في أحلك ساعة وأدقها ـ[٢] »

---

(١) P 265

(٢) P . 296 - 297

إصلاحات أتاترك وخطواته الثورية :

لم يكن كمال أتاترك كما تجلى من تاريخه الذي أوجزناه عالماً واسع الثقافة ، أو مفكراً عميق النظر ، إنما كان زعيماً قومياً قوي الإرادة ، وحاكماً قوياً شديد التنفيذ يوجز وصفه مؤرخه الانجليزي الشهير ، فيقول:

« في مواهبه وكفايته كان جندياً ، وفي غريزته كان معلم ثانوية وفي اتجاهه كان سياسياً [1] » .

ومأثرته التاريخية أو بطولته ـ كقائد وزعيم ـ مقصورة على « عملية النقل والتحويل » التي قام بها ونجح فيها أكثر من غيره ، يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره العظيم الذي مثّله في تاريخ تركيا الأخير :

« انطلق « كمال أتاتورك » يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه ، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها ، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم ، ونقل السلطنة إلى (ديمقراطية) وحول الامبراطورية إلى قطر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية.

إنه طرد السلطان (الخليفة) وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكمالها ، وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه ، وتقاليده وأساليب الحديث ، ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي ، وبالبيئة الشرقية ، لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد ، وكان يشعر بصعوبة هذه

(١) H . C . Armstrong : Creywoolf P , 294 .

العملية فقد قال مرة : « انتصرت على العدو ، وفتحت البلاد ، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب ؟[١] » .

إنه انتصر على الشعب حقاً فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الإسلام دينها الرسمي ، وأحدث الفصل بين الدين والسياسة وقرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديناً ويدين به ، من غير أن يكون له دخل في السياسة ، والإدارة ، وألغى الخلافة ، وألغى المحاكم الشرعية ، وقانون الشريعة الإسلامية ، وقرر العمل بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني ، وأدخل الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوربي ، ومنع التعليم الديني ، وعطل مراكزه ، ومنع الحجاب ، وقرر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وغيّر اللباس ، وألزم لبس القبعة ، وبعبارة موجزة : « قد حطم الأساس الديني وغير وجهة نظر الشعب التركي والحكومة التركية[٢] » .

إن عرفان أوركا بعد تقديم خلاصة المحاضرة التي ألقاها كمال في البرلمان حينما قدم إليه مشروع تحويل الدولة علمانية يقول :

« ـ قدم مصطفى كمال في ٣ / آذار (مارس) ١٩٢٤ م مشروعاً تحولت به الدولة التركية دولة علمانية (Secular) وألغى منصب الخليفة

---

(١) Grey Woolf P . 287

(٢) P. 190

وقد كان مصطفى كمال صريحاً وجريئاً في حديثه عن هـذا الموضوع ، فقال : « إن الامبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحيـاة ــ من ولادة الإنسان إلى وفاته ــ ويصوغها صياغة خاصة ، ويخنق الطموح في نفوس أتباعه، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام، والدولةلاتزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي[١] » .

ويقول المؤلف متحدثاً عن التأثير العميق الذي أحدثـه ما انتهت إليه الحكومة الجديدة وما قررته من إصلاحات حديثة :

« ــ كل ما قرره البرلمان لم يسترع الانتباه إلاّ قليلاً ، كان ذلك في الواقع ضربة قاضية على الإسلام وأصابه في المقتل وقد كان تأثير قرار توحيد المعارف بعيداً في نظام الثقافة والتعليم فقـد استحوذت بذلك وزارة المعارف العمومية على الجهـاز التعليمي كله في حدود الجمهورية ووضعت يدها عليه ، وقـد شل هذا التطوير نشاط المدارس وحرية الأساتذة والمعلمين الذين كانوا يباشرون التدريس فيها .

والخطوة التالية هي تأسيس إدارة الشؤون الدينية التي كانت تحت إشراف مدير رسمي،وقد كانت تخلف وزارة الشريعة والأوقاف القديمة، وكانت هذه الوزارة تتولى الأمور الدينيـة أو المقاصد الخيرية ورعاية المساجد ودار الأيتام ، ولكنها كانت تسيء تطبيق النظام والإدارة إساءة فاضحة[٢] » .

---

(١) P. 241.   (٢) P. 242.

وقد كان إحداث الحروف اللاتينية وحده كفيلاً بحدوث ثورة في حياة الشعب التركي وإنشاء جيل جديد تنقطع كل صلة له عن الحضارة القديمة والثقافة الماضية ، وقد كان طبيعياً أن تخضع العلوم والآداب كلها لهذا الحادث الخطير ، وقد تحدث المؤرخ الكبير آرنولد توئنبي (Arnold Toynbee) في كتابه (A study of History) ببلاغة عن مدى التأثير الذي أحدثه تغيير الحروف في تركيا وذكاء كمال أتاتورك في اختيار أفضل الطرق لذلك ، يقول :

« قد شاع في الناس أن مكتبة الاسكندرية التي كانت تضم ذخائر أكثر من تسعة قرون علمية سجر بها التنور لتسخين الماء للحمامات[1] .

وقد قام هتلر في عصرنا بكل وسيلة بإتلاف الذخائر العلمية التي تعارض فكرته ، وبإبادتها وقد جعل حدوث المطالع نجاح هذه العملية شبه المستحيل .

وقد كان مصطفى كمال معاصر هتلر أكثر توفيقاً وذكاء في إيثار الطريقة التي تضمن نجاحه ، وكان دكتاتور تركيا يريد أن يحرّر مواطنيه وعقلياتهم من أجواء المدنيـــة الإيرانية التي ورثوها ودرجوا عليها ويصوغهم بقوة في صياغة الحضارة الغربية وقد اقتصر على تحويل حروف

(١) يشير الى قصة حرق مكتبة الاسكندرية وأسطورتها التي خلاصتها أنه أحرقت هـذه الذخائر العلمية بأمر من سيدنا علي رضي الله تعالى عنه، وقد تحقق تاريخيا أن هذه الرواية اسطورة لا أصل لها ، بل كانت هذه المكتبة قد أحرقت قبل الفتح الاسلامي من مدة طويلة ، وقد أثبت العلامة شبلي النعماني عليه رحمة الله في كتابه العظيم « مكتبة الاسكندرية » أنها لا أساس لها من الصحة ، وهو من خير البحوث التي تتناول هذا الموضوع ،

الهجاء مكان إحراق الكتب ، وقد استغنى بذلك عن تقليد امبراطور الصين أو الخليفة العربي ، وقد أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم ، وأصبحت أجنبية لا تبلغها مداركهم ، وأصبح إحراق الكتب عملاً لا لزوم له ، لأن حروف الهجاء قد أُلغيت وقد كانت مفتاح هذا النتاج العلمي والإفادة منه ، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة في الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمع في قراءتها إلاّ بعض الشيوخ المسنّين من العلماء[١] ».

إن «أتاتورك» نجح نجاحاً باهراً في إقصاء العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية ، ولا يدري أحد هل كان هذا الانتصار موقتاً تقضي عليه ثورة الشعب التركي المسلم ، وانتفاضته الإيمانية ، أم تطول مدته ؟ وعلى كل فقد كان تغييراً شاملاً عميقاً .

تأثير أتاتورك في العالم الإسلامي :

وهكذا كانت تركيا ـ مع الأسف ـ طليعة حركة التجديد ـ وبعبارة أصح التجدُّد ـ وطليعة « التغريب » وقدوة الزعماء « التقدميين » في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية، وكان كمال أتاتورك رمز التقدم و « الثورة » في كل بلد ناهض، وفي كل مجتمع متحرر في العالم الإسلامي، والمثل الأعلى للقادة والسياسيين والمفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم، ولا نعرف زعيماً ـ على فقره في النبوغ العقلي والتعمق ـ من زعماء البلاد الإسلامية أثر في العقول والنفوس، وأثار الإعجاب بشخصيته

(١) Toynbee : A Study of History P. 518, 19

وأعماله وأثار الرغبة في تقليده والاحتذاء به، مثل ما فعل «كمال أتاتورك» في الزمن الأخير .

وكان السبب الأكبر في ذلك ما اشتهر أنه أنقذ تركيا من الخطر المحدق بها ، الآخذ بالخناق ، وأسس حكومة قوية ، وكسب احترام الحكومات الأوربية والزعماء السياسيين في أوربا ، وكان المسلمون في الشرق متعطشين إلى القوة السياسية والمجد والاستقلال ، يخضعون بالإجلال لكل من يتسم بذلك أو يسعى إليه ، فخضعوا لأتاتورك ودانوا له بالحب العميق والتقديس المفرط ، ونسوا في تقديسهم له ما للشعب التركي المؤمن الشجاع من سهم ومن فضل في هذه الثورة، وفي التمرد على الأوضاع القاسية ، والأمم الضارية ، وفي بناء هذا الكيان القومي المتين، وردوا الفضل كله في ذلك إلى عبقرية «كمال» وقيادته الفذة.

والسبب الثاني أن إصلاحاته صادفت رغبة في نفوس الزعماء القوميين، وعبّرت عما تجيش به نفوسهم من القلق والثورة على القديم، والتحرر من ربقة الدين، والاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية، ومهما كانت الأسباب فإن كمال أتاتورك قد حل محلا في النفوس لم يشغله زعيم شرقي من زمن طويل ، وكان له تأثيره المتوقع في اتجاه الشعوب والأمم الإسلامية والموقف الذي اتخذته إزاء الحضارة الغربية .

الصراع بين الشرق والغرب في الهند :

وكان المجال الثاني الذي ظهر فيه ـ لعوامل سياسية وثقافية ـ الصراع بين الشرق والغرب واضحاً قوياً ، وكان مكلفاً باختيار أحد

الطريقين: الحياة الإسلامية على أساس العقيدة والإيمان، والحياة الغربية على أساس القوة والتقدم، هو الهند التي توطدت فيها الحكومة البريطانية الزعيمة للحضارة الغربية في الشرق ، وزحفت إليها العلوم الحديثة والتنظيمات الجديدة ، وما تستتبعها من آلات ومصنوعات وآراء وفلسفات ، وكان الشعب الإسلامي الهندي منهوك القوى ، مُثخناً بالجراح ، مجروح الكرامة ، يعاني دهشة الفتح وعار الهزيمة ، وجيشاً من التهم والظنون، ويواجه فاتحاً ممتلئاً بالقوة والشباب والثقة، وحضارة زاخرة بالجدة والنشاط والإنتاج، وقضايا كثيرة ومشكلات تطلب الحل السريع الحازم ، والموقف الواضح الحاسم .

القيادة الدينية والمدرسة القديمة :

في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفي هذه الحالة النفسية المحرجة برز في الميدان نوعان من القيادة : أولهما القيادة الدينية ، التي يتزعمها علماء الدين، والقيادة الثانية ، يتزعمها سيد أحمد خان وتلاميذه وأنصاره من أهل المدرسة الجديدة .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامي شخصية دينية، ومن أكثرهم رسوخاً في الدين ، وزهداً في الدنيا ، وإيثاراً للآخرة ، وغيرة على الإسلام ، وجهاداً في سبيله بالنفس والنفيس ، ولكن جوهم الخاص الذي عاشوا فيه ، وثقافتهم القديمة ، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية مجدية تعود على الإسلام والمسلمين بالنفع والقوة .

ثم إن الهمجية التي ظهرت من الحكومة الانجليزية والقسوة النادرة التي عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة في الثورة المخفقة سنة ١٨٥٧ م وقادتها[١] ، وتحمس الحكام والولاة الانجليز لنشر المسيحية في طبقات الشعب الهندي، والسرعة الزائدة التي كانت الحضارة الغربية تنتشر بها في الجمهور وتأثيرها في عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، كل ذلك وضعهم في مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم ، وجعلهم يفكرون في الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية، والروح الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية ، والدعوة إلى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن، وجعلهم يفكرون في بناء معاقل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، والعلوم الشرعية ، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التي سميت بعد بالمدارس العربية .

وكان على رأس هذه الحركة الإصلاحية والتعليمية المنتجة الشيخ محمد قاسم النانوتوي[٢] مؤسس معهد ديوبند الكبير ، وكان لا ينظر إلى

---

(١) اقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتابنا « المسلمون في الهند » ص ٨٤ ـ ٩٤ ط ـ دار الفتح ـ دمشق

(٢) هو الشيخ الإمام قاسم بن أسعد علي البكري النانوتوي ولد بنانوته سنة ١٢٤٨هـ وقرأ على الشيخ مملوك العلي النانوتوي، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، وأخذ الطريقة عن العارف الكبير الشيخ إمـــداد الله العمري التهانوي ، وأسهم في ثورة سنة ١٨٥٧هـ على الحكومة الانكليزية ، واضطر الى الاختفاء مدة من الزمان، وتبنى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة في ديوبند وانقطع اليها ، وكانت له مواقف عظيمة في منـــاظرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه وإخلاصه، وعارض قائد الحركة التعليمية الجديدة السيد احمد خان لآرائه الشاذة وحريته الزائدة في تفسير القرآن والدعوة الى تقليد الحضارة الغربية ، وقد اعترف السيد أحمد خان بتبحره في العلم وإخلاصه في المعارضة وزهده في زخارف الدنيا، له مؤلفات بليغة أشهرها تقرير وليندير ، وحجة الاسلام ، وآب حيات . توفي الى رحمة الله سنة ١٢٩٨هـ.

المؤسسة التي ساهم في تأسيسها وقادها في حياته ، كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية ويخرج الفقهاء والمعلمين فحسب، بل كان ينظر إليه كمركز « وثكنة » تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعد ما لقي المسلمون الهزيمة المنكرة من الإنجليز المحتلين، وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند .

يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في « سيرة مولانا محمد قاسم النانوتوي » مؤسس دار العلوم ديوبند :

« قد اشتغل عقله الكبير في فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد ما أخفقت ثورة عام ١٨٥٧ م ، وكان نظام التعليم والتربية السائد في دار العلوم ديوبند عاملاً أساسياً لتحقيق هذا المنهج الذي آثره الشيخ » .

إن الذين تراجعوا من ساحة شاملي [١] لم ينقطعوا عن التفكير، ولم يضعوا أوزارهم ، بل بقي هؤلاء يكافحون لبقاء الدين والعلم الديني ، واشتغلت به عقولهم وقلوبهم ، ينتظرون من الله النصر ، وكان من ضمن هذه الجهود هذه المدرسة التي لم تكن غايتها التدريس والتعليم فحسب، وإنما كان من غايتها الأساسية تربية رجال يتداركون الهزيمة التي لحقت المسلمين في ١٨٥٧ م [٢] .

---

(١) قرية بين دهلي وسهارنبور وقد كانت فيها في عام ١٨٥٧م معركة حربية ضد الانجليز قاتل فيها الحاج إمداد الله المهاجر المكي ، والشيخ محمد قاسم وزملاؤهما واستشهد فيها الشيخ محمد ضامن .

(٢) سوانح قاسمي الجزء الثاني ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٦

وسواء تحقق هذا الغرض النبيل أم لم يتحقق ، ولكن مما لا شك فيه أن لهذه الحركة وقادتها فضلاً كبيراً في تمسك الشعب الهندي الإسلامي بالدين وشريعة الإسلام ، وتفانيه في سبيله ، والتماسك أمام الحضارة الغربية المادية الإلحادية تماسكا لم يشاهد في بلد إسلامي آخر تعرّف بهذه الحضارة ووقع تحت حكم أجنبي ، وكانت ديوبند زعيمة هذا الاتجاه ، والمركز الثقافي الديني والتوجيهي الإسلامي الأكبر في الهند (١)

حركة ندوة العلماء :

وكانت حركة ندوة العلماء الفكرية التي أسسها مولانا محمد علي المونكيري (٢) وقادها الاستاذ شبلي النعماني (٣) وزملاؤه ، ودار العلوم

(١) انظر فصل « مراكز العلم والثقافة الاسلامية » في كتاب « المسلمون في الهند » ص ٦٤ ـ ٦٦ .

(٢) هو السيد محمد علي بن عبد العلي الحسيني ، ولد في كانفور في ٣ شعبان ١٢٦٢ هـ ٢٨ يوليو ١٨٤٦ م ، تخرج في مدرسة فيض عام كانفور ، وبايع الشيخ العارف فضل رحمن الكنج مراد أبادي واختص به . قاوم حركة التنصير في الهند مقاومة فعالة وألف وكتب وقام بجولات واسعة في البلاد . وأسس ندوة العلماء في سنة ١٣١٠ هـ ـ ١٨٩٣ م ، وأنشأ دار العلوم التابعة لها في عام ١٣١٦ هـ ـ ١٨٩٨ م ، وقاوم حركة القاديانية في « بيار » وبايعه خلق كثير يعدون بالآلاف ، توفي في ٩ ربيع الاول سنة ١٣٤٦ هـ ، وكان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين الذين شعروا بتغير الاحوال والاوضاع في العالم الاسلامي ، ونهضوا للتجديد في مناهج التعليم الديني .

(٣) هو الشيخ شبلي بن حبيب الله ولد في سنة ١٢٨٤ هـ في اعظم كرفه ، ودرس زماناً في كلية على كره ، وصحب السيد أحمد خان مؤسس الكلية ، وأنكر بعض اتجاهاته المتطرفة ، وزار تركيا ومصر وسورية وغادر الكلية وأقام في حيدر آباد خمس سنين ، مديراً لنظارة العلوم والفنون ، وأسهم في حركة ندوة العلماء وكان عضوها النشيط والمشرف التعليمي لمدة ثمانية اعوام ، ثم استقال وأسس المجمع العلمي المعروف بدار المصنفين في اعظم كره ، وألف في التاريخ الاسلامي كتباً مهمة ، وكانت له مكانة مرموقة في حقل الشعر ، والادب والتاريخ ومن مصنفاته المشهورة سيرة المأمون ، وسيرة النعمان ، وكتاب الجزية في الاسلام ، وحقوق الذميين ، و « الفاروق » وشعر العجم ، وغير ذلك ، توفي ١٣٣٢ هـ ببلدة اعظم كره .

التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة تصل بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين ، وإحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد، وبتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية « بين القديم الصالح والجديد النافع »و« بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو والتطور ، خاضعة لحاجة كل عصر ومقتضاه ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لامرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية) وهي عندهم حافلة بالحيوية الكاملة والازدهار ، وبتعبير آخر : إن الدين حقيقة خالدة ليست في حاجة إلى تطوير أو تبديل ولكن العلم شجرة مزهرة مثمره تؤتي أُكلها كل حين ويستمرّ نموها وازدهارها ، والإسلام عندهم دين الإنسانية كلها ودين العصور كلها ،لذلك من الطبيعي أن يمر بمراحل التطور والارتقاء الفكري الإنساني المختلفة ، ويكلف القيادة في بيئات تتغير فيها الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يُوسع نطاق التعليم والثقافة الذي يعدّ ممثلي الإسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها،وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج وتوسيعها وتطويرها ، وقد كان هذا الصوت غريباً في الهند التي ظلت متمسكة بالمنهاج القديم عاضة عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً في الأقطار الإسلامية الأخرى كذلك،يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا احداهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونكيري ، والثانية من كتابة العلامة شبلي النعماني : —

« ـ قد تغيرت الظروف والأحوال في هذا العصر،إن الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفـرق التي كانت تثيرها وتتشبّث بها ، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهادا في غير عدوّ ، وقـد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال ، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن إشباع الرد عليها والاقناع العلمي بالاعتماد على الفلسفة القديمه فقط . وإن زعم زاعم ، والسبب في ذلك أن الإنسان لايستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلاّ إذا عرف ما يؤول إليـــه الاعتراض وعرف الدوافع [١] .

« ـ إن هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولايتوقف عليها فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالي في عصره قد ضم هـذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم في عصره لـكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرقة الباطنية في ذلك العصر ويقاوموا بذلك حركة الإلحاد المتفشي في ذلك العصر ، ولـكن الآن لاوجود لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد صدقها وصحتها المتنورون ولامن يدعي الفطنة لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مـكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جـديدة ، وقد أصبح من الضروري أن يطلـع

---

(١) مكاتيب محمدية ـ مجموع رسائل الشيخ محمد علي المونكيري .

علماؤنا على الأبحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردّوا على الشبهات رداً علمياًمؤسّساً على الدراسة والتحقيق [١] » .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرة ومدرسة فكرية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت ـ لو قدر الله ـ خطوة مباركة وفتحاً جيداً يستحق التقليد في الأقطار والمجتمعات الإسلامية التي خاضت في ذلك العهد في معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظَ بالتعاون الواسع المتحمس الذي كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التي حدثت في صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخراً لعدم وجود طبقة من الاساتذة والموجهين الذين فد تبحروا في الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما وكوّنوا من هذه المواد ـ التي قد تبدو متناقضة ـ رحيقاً صافياً شهياً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقي معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ، طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف أو نوعاً من البدع ؛ وطبقة تقدس كل ماجاء من الغرب وتبرئه من كل عيب ونقص ، وتعتقد بأصحابه العظمة والعبقرية ، في جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لاتزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوَسط الحقيقية

---

(١) حيات شبلي ص ٦٠

التي تستطيع أن تُنقذ نظام التعليم الديني من الانهيار وتتفادى بها الأُمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ؛ طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الذي جرّ على كثير من البلاد الإسلامية شقاء ، وكان السبب في كثير من الأحيان في اتجاه البلاد العلماني ، واللاديني .

وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرجي مدرستها ـ دار العلوم ندوة العلماء ـ فضل لايستهان به في نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أُسلوب عصري قوي وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلي النعماني العلمية والأدبية ولا سيا لكتبه « سيرة النبي » ﷺ و« الفاروق» و« الغزالي » و« الرومي» ولرسائله: « الجزية في الإسلام » « ومكتبة الاسكندرية » و «نظرة تاريخية على عالمكير » تأثير كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي رحمة الله عليه فضل كبير في هذا الاتجاه. وكانت المجلات الأربعة التي أكمل بها كتاب سيرة النبي ﷺ موسوعة كبيرة في السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه «خطبات مدراس »[١] من أقوى وأجمل ماكتب في السيرة ، وكذلك كُتبه عن الشخصيات الإسلامية ، وفي البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة في حركة

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونشر باسم « الرسالة المحمدية » ط : دار الفتح . دمشق .

البلاد العلمية والأدبية والسياسيةمساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب،وأبعدت عنهم تهمة « الانعزالية» التي أُصيب بها العلماء في عهد الانحطاط الأخير وكانت مجلة « المعارف» التي يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجلات العلمية الإسلامية في العـالم الإسلامي .

قيادة السيد أحمد خان ومدرسته الفكرية .

أما القيادة الثانيةالتي تزعمهاسيد أحمد خان فقد قام على أساس تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية ، واقتباس العلوم العصرية بحذافيرهـا وعلى علاتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً يطابقـان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي[1] ويطابقان هوى الغربيين وآراءهم وأذواقهم ، والاستهانة بمـــا لا يثبته الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة في بادىءالنظر ،من الحقائق الغيبية ، وأمور ما بعد الطبيعة[2] .

---

(١) وكان كما لايخفى دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها واكتمالها ، وكانت لاتزال في دور الطفولة والنشوء والارتقاء .

(٢) اقرأ التفصيل وفهم أسلوب التفكير الديني الذي اتبعه سرسيد أحمد خان في آرائه الدينية ومناهجه الكلامية ، كتاب ـ Religious Thought of Syed Ahmad Khan لمؤلفه بشير أحمد دار ـ Bashir Ahmad Dar M . A

instituite of islamic culture, Lahore .

من مطبوعات مجمع الثقافة الاسلامية .

شاهد السيد أحمد خان[1] انهيار الحكومة الإسلامية المغولية التي كانت صورة مصغرة شاحبة للإمبراطورية الإسلامية ، ورأى إخفاق الثورة الكبرى في سنة ١٨٥٧م ، واطلع على أسباب هذا الإخفاق الذريع وانهزام مجموعة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء ، ورأى ما دفع المسلمون من قيمة هذه الثورة التي رسموا خطتها وتولوا كبرها ، ورأى هوانَ الشعب الكبير الذي كان صاحب الأمر والنهي في البلاد ، وشقاء الأُسر والبيوتات الكبيرة ، ورأى سطوة الانجليز تقوم على هذه الأنقاض ، وأبهة ملكهم ، وطلائع مدنيتهم الخلابة ، وآياتها الباهرة ، واتصل بالإنجليز اتصالاً وثيقاً عن طريق الوظيفة والزمالة وعن طريق الصداقة والتعارف ، فأُعجب بذكائهم وكفاءتهم ومدنيتهم ، وكان رجلاً مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوي العاطفة ، عصبياً ، سريع الانفعال والقبول ، مشاركا في الثقافة الدينية

---

(١) هو السيد أحمد بن المتقي بن الهادي الحسني الدهلوي ، ولد في سنة ١٢٣٢هـ – ١٨١٧م وقرأ المتوسطات في العلوم العربية ، وعني بالهيئة والهندسة والأقليدس عناية خاصة ، وتولى الوظائف والقضاء في الحكومة الانجليزية ، وألف كتبا ذات قيمة علمية في التاريخ ، وتولى تصحيح بعض الآثار العلمية والمؤلفات القديمة ، وأشرف على ضبطها ونشرها ، وكان من أنصار الحكومة الانجليزية وممن سعى في إخماد ثورة ١٨٥٧ م وتوطيد الحكم الانجليزي وإزالة سوء التفاهم والوحشة بين الشعب والحكومة ، وكافأته الحكومة على ذلك براتب شهري ، وأنشأ مجمعاً علمياً للترجمة والتأليف والنشر ، وأصدر مجلة « تهذيب الأخلاق » وسافر الى أوربا سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٩م وألف هناك كتابه المشهور « الخطبات الأحمدية في العرب والسيرة المحمدية » في الرد على السير وليم ميور ، والدفاع عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ سنة ١٨٧٥ م كلية إسلامية انجليزية ، وهي التي تسمى الآن جامعة على كره الاسلامية وتوفي سنة ١٣١٥هـ – ١٨٩٨ م ودفن في على كره .

غير راسخ فيها ، ولا متقن لها ، جريئاً في إبداء الرأي ، فتأثر بالإنجليز تأثر المغلوب بالغالب ، والضعيف بالقوي ، وقلد حضارتهم ، وأساليب حياتهم شخصياً ، وصار يدعو إلى هذا التقليد في حماسة وقوة ، ويرى أن هذا التقليد والظهور في مظهر سيد البلاد ومجاراته في الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين ، وتعالج «مركب النقص» فيهم ، وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم في مكان الزملاء ، الشركاء في الحياة ، الأقران في الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء في بعض مقالاته ، يقول :

« لا بد أن يرغب المسلمون في قبول هذه الحضارة (الغربية) بكمالها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها ، ويعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفة »[١] .

وقام السيد أحمد خان برحلة إلى إنجلترا في أول إبريل ١٨٦٩م فكان أول مسلم هندي سافر إلى الجزائر البريطانية في هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناة السويس في دور الإنشاء[٢] وقد قابل صاحب فكرتها والإشراف عليها المهندس الفرنسي الشهير الموسيو فرديناندي ليسبس (Ferdinand De Lesseps) الذي كان مسافراً في نفس السفينة . وكان السيد أحمد خان موضع حفاوة نادرة في لندن ، وقد مكث فيها سبعة

---

(١) مجلة « تهذيب الأخلاق » مقالات السيد أحمد خان ج٢ ص١ .

(٢) وفي ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فتحت الترعة لمرور المراكب وجرى ذلك باحتفال عظيم لم يكن يسمع بمثله وذلك في أثناء وجود السيد أحمد خان في إنجلترا .

عشر شهراً ، كان فيها ضيفاً مبجّلاً وزائراً كريماً ، وصديقاً عزيزاً في الأوساط الإنجليزية المحترمة ، وحضر المآدب الملكية الفخمة والولائم « الارستقراطية » التي تمثل الحضارة الأوربية في أروع مظاهرها ، وأخلاق الطبقة الحاكمة ، وطبقة الأشراف ، ونال الوسام الملكي ولقب الشرف ، وقابل الملكة، وولي العهد والوزراء الكبار ، واختير عضواً فخرياً في جمعيات علمية ذات الشرف الكبير ، وحضر حفلة نادي المهندسين الكبار ، واطلع على المشاريع والخطط التقدمية التي مرت بها البلاد في الزمن القريب ، والتي أحدثت ثورة وانقلاباً في الأوضاع،وفي مستوى البلاد ، ومكنتها من بسط نفوذها وسيطرتها الفكرية والسياسية .

رأى السيد أحمد خان فرنسا وإنجلترا وهما في أوج مدنيتهما ، وفي ريعان الصناعة الحديثة والعلم الجديد ، ورأى المجتمع الإنجليزي في عصر لم يتسرب إليه الوهن ، ولم يعتره الضعف الذي اصيب به بعد الحرب الأولى ، ورأى الحيوية تتدفق منه ، والطموح إلى غزو العالم وإخضاعه يملك زمامه ، وقد شغل بمشاهدة جانبه المُشرق الوضاء عن مشاهدة جانبه الضعيف الأسود ، وهو الجانب الخلقي والروحي ، وجانب الاستعمار الغاشم ، والإجرام العالمي والأثرة القومية ، والقسوة على غير الإنجليز ــ التي رأى مظاهرها في الهند ــ فأعجب بهذه الحضارة والمجتمع الذي يمثلها إعجاباً ملك عليه النفس والفكر ، وملأ جميع جوانحه وجوانب تفكيره ، ورجع إلى البلاد في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ م

داعية متحمساً إلى تقليد الحضارة الغربية ، وإصلاح المجتمع الإسلامي الهندي على أساس تقليد المجتمع الأوربي ومبادئه وقيمه ، وتبنّى هذه الدعوة بكل إخلاص وبكل حماسة ، ووهب لها مواهبه كلها ، وأصبحت نظرته مادية بحتة ، تخضع للقوى الطبيعية، والسنن الكونية - كما يفهمها - خضوعاً زائداً ، ويخضع لها عقيدته ويؤوّل على أساسها القرآن تأويلاً يبلغ به حد التحريف والعبث بأصول العربية واللغة والنحو ، والتواتر والإجماع ، فصار يفسر القرآن تفسيراً [1] يخرق فيه الإجماع ، وينقض به اللغة ، ويثير العجب والانكار في الأوساط الدينية والعلمية ، وقد أصاب الدكتور محمد البهي في نقد هذا الاتجاه إذ يقول في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث » :

« فحركة السيد أحمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية ، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى « العلم » (Sceince) وبالمركبات الحضارية التي قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال يؤدّي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل ، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعي إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لايشاهد في الطبيعة ، ويدرك بالحس الإنساني ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغاني بين إلحاد السيد أحمد خان

---

(١) سماه « تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان » كتبه في اردو في ستة مجلدات ، وقد وصل فيه الى تفسير سورة النحل .

ومذهبه الدهري أو الطبيعي مع بقاء انتسابه إلى الإسلام ولغته بالإلحاد، رغم ما كان يكرره من القول بأنه يدافع عن الإسلام ، وأنه يبغى أن يوجد طريقاً للمسلم المعاصر يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التي قامت على إثر نهضة العلم الطبيعي [١] .

وقد كان هذا الاتجاه المادي المتطرف والإسراف في تمجيد العقل والمبالغة في سلطانه وحدوده ، وإخضاع إرادة الله وقدرته وكتابه لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم والجراءة على التفسير وتأويل معاني القرآن ، تأويلاً جريئاً قد فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد في آيات الله والفوضى في الدين والعقيدة التي انتشرت في العصر الأخير [٢] .

جوانب الضعف في فكرة السيد احمد خان :

اتسمت خطة السيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاصرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التي تشتد إليها حاجة العالم الإسلامي ، وعملاً إيجابياً بناءاً يلائم وضع هـــذا المجتمع القائم على أساس العقيدة والإيمان والرسالة المحمدية ، ويملأ الفراغ الهائل الواقع في العـالم الإسلامي كله .

---

(١) ص ١٥ ــ ١٦

(٢) قد يفهم القارىء من كتاب « الفكر الاسلامي الحديث» للدكتور محمد البهي (ص١٧) أن المذهب القادياني انبثق من الحركة التجديدية الدينية التي قام بها السيد أحمد خان وليس الأمر كذلك فان السيد أحمد أنكر على مؤسس القاديانية ادعاء النبوة وعارضه ، إن قصارى الأمر أن الجو الذي هيأه السيد أحمد خان قد ساعد في انتشار هذا المذهب وقبول آراء صاحبه المتطرفة، وقد كان خليفة القادياني (وعقله الأول) نور الدين الحكيم من كبار المعجبين بمدرسة السيد أحمد خان في التفسير والتأويل .

أولاً أنه لم يفكر في إخضاع هذا النظام التعليمي الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية ، لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي الذي كان يريد تطبيقه فيه ، وحاجاته وأوضاعه ، ولم يفكر في سبكه سبكاً جديداً إسلامياً هندياً ، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التي لالزوم لها في بلد إسلامي شرقي ، بل إنه استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته ومع الحضارة التي تكتنفه ، وألح على كلا الجزئين–المنهاج التعليمي ، والحضارة الغربية– إلحاحاً شديداً بل شرط – في قانون الكلية – أن يكون العميد دائماً إنجليزياً وأستاذان – على الأقل – من الإنجليز ، ومدير الثانوية من الإنجليز ، ويزاد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية [١] .

وهكذا كان ، فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الإنجليز يتولون التدريس في أقسام مختلفة ويشرفون عليها ، وكان لهم تأثير شديد عميق في نظام الكلية وأخلاق الطلبة ، حتى استطاعوا – بنفوذهم – أن يلعبوا دوراً مهماً في سياسة البلاد ، وقد كان عميد الكلية المستر ثيودربك – الداهية الإنجليزي – صاحب التوجيه الأول في السياسة الإسلامية الهندية وقيادة الرأي ، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة ، واتجاه المسلمين السياسي [٢] .

وهكذا اقترنت دعوة السيد أحمد خان التعليمية بالدعوة إلى

---

(١) حياة جاويد (سيرة سيد أحمد خان) لصديقه الأستاذ ألطاف حسين حالي ص ٢٨٢.

(٢) اقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتاب « المسلمون في الهند » للمؤلف .

الحضارة الغربية من غير لزوم وحاجة إلى ذلك فحامت ، حولها الشبهات واكتنفها أجواء من السخط والاستياء ، وأثارت إنكاراً شديداً في الأوساط الدينية ، ورافقتها — منذ نشوئها — دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة والابتعاد عنها ، خلقت مشكلات كثيرة في سبيلها، وعارضها علماء الدين - الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية والعلوم المفيدة - لما اقترن بها ورافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية وقيمها ، والتأثير في الأخلاق والعقائد، وبسبب سيطرة الأساتذة ورجال الإدارة الإنجليز ونفوذهم في هذه المؤسسة الوليدة ، وفي عقول الشباب المسلمين — الذين ينتمون إلى أكرم الأُسر الإسلامية وأذكاها — وفي أخلاقهم، وقد نشأ — بفعل هذه المؤثرات وبتأثير الجو الغربي الذي يسود في هذا المعهد — جيل مثقف إسلامي الاسم غربي التفكير ، إنجليزي الطراز ، مضطرب العقيدة في بعض الأحيان ، يخلق مشكلة جديدة في البيوتات وفي المجتمع الإسلامي، ولا ينسجم معه انسجاماً كلياً.

والسمة الثانية أنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة والآداب فقط ، ولم يعن بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية التي تستحقها ، مع أنها هي ثمرة العلم الجديد اليانعة ، وسر قوة الأُمم الغربية وسيادتها ، وهي التي يجب أن تستفاد من الغرب ويحرص على دراستها والبراعة فيها بل إنه — سامحه الله — عارض في بعض الأحيان تعليم الصنائع والعلوم معارضة شديدة ، وكتب في هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد آخرها المقال الذي نشرته مجلة

« عليكرة كزت، » (Aligarh Gazette) في عددها الصادر يوم ١٩ فبرائر سنة ١٨٩٨ م يقول فيه : « إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى التي لم تتحقق أو لم تكتمل بعد » وقد تخوف السيد احمدخان بما كان يقرؤه لكبار الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالي أو تعليم الآداب الغربية ، فكان يحارب هذه الفكرة بكل قوته وبلاغته ، وقد ألقى محاضرة طويلة في حفلة مؤتمر التعليم الإسلامي الخامسة في هـذا الموضوع ، وعارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية والدراسات الأدبية ،وقد عرض هذا المشروع مراراً وبحث فيه في لجان جامعة إله آباد ، وكان السيد أحمد خان من كبار خصومه ومعارضيه [١] .

كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الإسلامية اتجهت اتجاها علمياً أدبياً محضاً ؛ وسيطرت عليه نزعة التقليد والتطور ، ونزعة التوسع في الآداب ، وخرّجت عدداً لايستهان به من الخطباء والأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الكبار ، ولم تخرج ــ بطبيعة الحال ــ رجالاً مبرزين ومبتكرين في علوم الهندسة والميكانيكا ، والطبيعة والكيمياء والصناعات المفيدة ، والعلوم التي كان الشعب الإسلامي الهندي في فقر شديد فيها ، وكان ذلك من أسباب تخلفه واقتصاره على الوظائف الحكومية والمراكز الإدارية المحدودة دائماً .

---

(١) حياة جاويد ص ٣٠٢ – ٣٠٣ .

محصول هذه الحركة وإنتاجها :

وعلى كلٍ ، فقد كان السيد احمد خان من أقوى الشخصيات التي عرفتها الهند بل العالم الإسلامي في العهد الأخير ، وكانت الحركة التي قام بها من أقوى الحركات وقد كتب لها من النجاح والتأثير مالم يكتب لأي حركة وفكرة ، وكان نفوذ شخصية السيد احمد خان واسع النطاق وعميقاً في المجتمع الإسلامي الهندي ، كان له تأثير في الأدب والتفكير وأساليب البيان ، وقد أنشأ مدرسة أدبية لها كُتّاب مفكرون .

وقد آتت هذه الدعوة التعليمية ــ التي تزعمها السيد أحمد خان بقوة وإخلاص ــ ثمراتها ، وملأت الفراغ الثقافي والاقتصادي الواقع في المجتمع الإسلامي الهندي ، بعد استقرار الحكم الإنجليزي في الهند ، وعالج ــ إلى مدى محدود ــ القلق واليأس المسيطرين على نفوسهم ، وتخرج في هذه الجامعة بعض خيرة الشباب وقادة الفكر ، والزعماء السياسيين وأدباء كبار ، وشخصيات قوية قادت حركة « الخلافة »[١] وحركة التحرير في الهند ، وساهمت في قيام دولة باكستان وإدارتها بعد ، ولكنها ــ على مالها من فضل في ثقافة المسلمين الجديدة وفي حالتهم الاقتصادية ــ لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها للمجتمع الإسلامي وظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الإسلامي الجديد ، الراسخ في عقيدته القوي في إيمانه ،

---

(١) هي حركة تأييد الحكومة العثمانية في قضاياها الاسلامية ومارضة الحلفاء وكانت من أقوى حركات الهند الاسلامية السياسية .

العارف لرسالته ودوره في قيادة المدنية ، الواسع في ثقافته ، المرن في تفكيره ، الآخذ من الثقافة الجديدة محاسنها ولبابها ، المتجنب عن شرورها وقشورها ، الأصيل في إنتاجه ، الجيل المرتقب الذي كان يتطلع إليه العالم الاسلامي – ولا يزال – في لهف شديد وصبر نافد ، الجيل الذي كان يستطيع بتوفيق الله تعالى أن ينقذ العالم الاسلامي من الحيرة التي كان يتورط فيها ، ومن الضعف الذي قد تسلط عليه، ويمنحه مركزاً رئيسياً في قيادة الأمم ، وتوجيه المدنية .

أكبر الاله آبادي الشاعر الثائر :

وقد حارب هذه النزعة التطبيقية التقليدية – التي يقودها السيد أحمد خان – حرباً لا هوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة وجديدة ، يعتبر من أكبر شعراء عصره ، وهو السيد أكبر حسين [١] الإله أبادي ، المتلقب في شعره بـ « أكبر » واستخدم لنقدها والإنكار على هذا الجيل المثقف الجديد أسلوب الفكاهة الحلوة ، والأدب الخفيف الروح ، من

(١) هو السيد أكبر حسين بن تفضل حسين ، ولد في سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م) في مديرية إله آباد، وتلقى الثقافة الاسلامية ودرس اللغة الإنجليزية، واجتاز في سنة ١٢٨٤هـ امتحاناً في الحقوق وتولى القضاء ، وتنقل في الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٣٢٠– ١٩٠٣، ولقبته الحكومة الانجليزية بلقب « خان بهادر » – يساوي بك في المجتمع المصري – ولقبه الشعب الهندي بلقب « لسان العصر » ، فغلب لقب الشعب لقب الدولة الرسمي .

وكان – رغم ثقافته الحديثة العميقة – ديناً محافظاً سليم العقيدة ، قال في الليلة التي توفي فيها ، « مافاتتني فريضة ، ولا غفلت عن حزبي في الليل، ولا انصرفت عن تلاوة القرآن طول عمري » توفي رحمه الله سنة ١٣٤٠ هـ – ١٩٢١ م ، ومن آثاره ثلاثة دواوين شعرية ضخام تلقتها الأوساط الأدبية والاسلامية بالقبول والاستحسان ، وشهد له كبار الادباء والشعراء – منهم العلامة محمد إقبال – بالاجادة وأنه إمام في الشعر الفكاهي الاصلاحي في أردو .

أبلغ الأساليب الأدبية وأقواها ، وأجملها في هذا العصر ، وجعل ذلك موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة السيد احمد خان ـ الذي يعترف بإخلاصه ـ التعليمية ، وما كان يدعو إليه من تقليد الغرب وتطبيق مناهج حياته ، وينتقد الحياة السائدة في الكلية الإسلامية ، وما تتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل في العقيدة ، ورقة في الدين ، وتبذير في الأقوال ، وتالق في المظاهر ، ونفـــور عن الدين ورجاله ، ونهامة للحياة ، وتهالك على الوظائف الرسمية ، وتخل عن التراث الشرقي القديم ، وعن تقاليده ومبادئه ، وثورة عليها ، واندماج في المجتمع الغربي الغريب ، وسيطرة التفكير المادي الاقتصادي المحض، ويصور ـ بشاعريته الساحرة وريشته البارعة ـ الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسمات والملامح .

وقد انتشر هـذا الشعر في الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً : وتلقفه الأدباء والكتاب والشباب ورددوه ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، وعلى نجاح هذا الشعر وتأثيره في تحريك عاطفة الكراهة والازدراء والتخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية وقيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة في المجتمع ويقف تيار التقليد الجارف ويؤسس مجتمعاً جديداً ، لأن الأدب المؤسس على التهكم والتنادر تأثيره وأجله محدودان،

ولكنه لم يخل من الفائدة ، وكان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة في الهند [١] .

الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية :

كان هذا الاتجاه التقليدي في الهند ـ الذي قاده السيد أحمد خان في المسلمين وغذته الحكومة الإنجليزية ونظام المعارف ـ في الطبقة المثقفة ، حراً في سيره لايعوقه شيء ، ولا يخفف من حدته إلاّ هدوء الطبيعة الهندية واعتدالها في قبول كل جديد ، وتمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلاّ أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على البلاد على مر الأيام ، ويجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غربياً في تفكيره وأساليب حياته ، وفي حضارته واجتماعه ، ولكن حادثاً حال دون ذلك ، وغيّر اتجاه التاريخ .

حدث مايضعف سلطان الحكومة الانجليزية ـ التي تتزعم هذه الحضارة في الهند ـ فى النفوس والعقول ، ويثير الشك في قيمة هذه الحضارة وجدارتها للقيادة واستعدادها للإنصاف وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وما يثير السخط الشديد والكراهة العميقة لزعماء هذه الحضارة وممثليها في الشرق ، وما يحرك الشعور القوي بالشخصية وبالكرامة في أهل البلاد ، ويحمل على مقاطعة هذه الحكومة وكل

---

(١) للمؤلف مقالة مسهبة نشرت في مجلة « الفتح » المصرية . مجلد العام التاسع ١٣٥٤هـ عدد ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ومجلة « الضياء » الصادرة عن ندوة العلماء ـ لكهنؤ ـ (الهند) .

ما يُعزى إليها من حضارة ومظاهر وشعائر وكل ما يموّن حركتها التجارية والاقتصادية ويغذيها ، ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) ووقوف الحكومة البريطانية ـ مع حلفائها ـ الموقف المعادي من الدولة العثمانية التي ينظر إليها المسلمون في الهند ـ كغيرهم في البلاد الإسلامية ـ كرمز للمجد الإسلامي ،وموئل للخلافة ، وحامية للإسلام ، ولما تمت الهزيمة للأتراك في ١٩١٨م واستولى الإنجليز على الآستانة ، وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية ، انفجر بركان الثورة في الهند ، وتعاون المسلمون والهندوس في حركة الخلافة بشكل عام ، وكان غاندي ـ الزعيم الهندي الشهير ـ في جبهة القيادة مع زملائه محمد علي وشوكت علي وأبي الكلام آزاد ، واقترحوا سنة ١٩٢٠م مقاطعة الحكومة والإضراب عن التعاون معها في إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة ومقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح سلمي استخدمته حركة وطنية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلي عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة ، والظهور في المظهر الوطني الشعبي ، والتمسك بالبساطة والتقشف في الحياة ، والاقتصار على المنتجات الوطنية ، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدتها البلاد ، وكانت البلاد كلها ـ من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها ـ شعلة نار ، وقد هزت سيطرة الحضارة الغربية في أعماق النفوس ، واقتلعت جذورها وعروقها من قلوب لا يحصيها كثرة إلاّ الله ، وأشعل الناس

النيران في ملابسهم الغربية ، والقماش الواردمن الخارج - من إنجلترا طبعاً - في جموع حاشدة ، وحفلات كبيرة ، ورفض كبار الأغنياء والمثقفين ، ورجال الطبقة الارستقراطية عيشتهم الغربية الباذخة ، وتقشفوا وآثروا الحياة البسيطة الوطنية ، وحدث انقلاب عظيم في حياة الكثيرين من كبار المحامين والتجار والمؤسرين ، فقد ملأوا السجون ، وتحملوا المشاق ، وبدا منهم من الإيثار ، والزهد والقناعة ، وقوة العاطفة الدينية والوطنية ، والمواساة للفقراء والمحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

وتلت هذه الحركة التي كان طابعها دينياً ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التي ترمي إلى تحرير البلاد ، وطرد الاستعمار ، وإقامة الحكم الذاتي ، وكانت - بخلاف كثير من الحركات السياسية في الشرق - حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية واقتصادية ، فلعبت دورها في إضعاف سلطان هذه الحضارة التي جاءت مع المستعمر في تدعيم الشعور الوطني ، وإيثار كل ماهو أصيل وعريق في طبيعته الهندية وبيئته الوطنية على المستورَد الأجنبي ، ولا شك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل - من محاربة مركب النقص ، ومن إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكري والثقافي - مالا تستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، وذلك شأن الحركات العملية الشعبية ، التي تتغلغل في أجزاء المجتمع وتسيطر على تفكيره دائماً في كل بلد .

محمد إقبال ونقده للحضارة الغربية :

وقد بدأ الشباب الإسلامي الذكي في فجر القرن العشرين يتوسعون في الدراسات الغربية ، ويتعمقون فيها في الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوربا ، ويقيم عدد كبير منهم في عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان ، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن كتب ، بل يخوضون فيها، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها كأي شباب غربي مثقف من أبناء البلد ، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية ، ويطلعون على دخائلها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوربية ، والأثرة الشعبية في نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف وبوادر الإفلاس وطلائع الانهيار في المجتمع الغربي ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة، المسعدة للبشرية ، المفقودة في تركيب هذه الحضارة ، وفي طبيعة زعمائها وحملة لوائها ، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية ، المضللة للبشرية ، الموجودة في عجينها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك في نفوسهم وعقولهم معاني وأحاسيس لم تكن ممكنة إلاّ مع الإقامة الطويلة في أوربا ، والتعمق في فلسفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة، وإلاّ مع النظر العميق الجريء ، والتحرر من ربقة التقليد ، وإلاّ مع الإيمان الذي لم يتجردوا عنه ، بل بقي جمرة في رماد مستعدة

للالتهاب في كل وقت، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزناً ، لا تطرف فيه ولا انكار للواقع ولا مكابرة في الحقائق .

لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال [١] الذي يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه — على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك — أحداً نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجريء .

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هذه الحضارة

---

(١) ولد محمد اقبال بن نور محمد في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧م وانضم إلى كلية الحكومة في « لاهور » حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة وأخذ درجة ماجستر (M . A .) في الفلسفة بامتياز ، وعين أستاذاً الفلسفة والانجليزية في نفس الكلية ، وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ ، حيث التحق بجامعة كمبردج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ، وسافر إلى ألمانيا واخذ من جامعة ميونيخ الدكتوراة في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن وتخصص في المادتين ، والقى عدة محاضرات في مدراس ، وأخرى في جامعة كمبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناءاً عظيماً ، وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية والفرنسية والالمانية والطليانية والروسية ، وانتخب رئيساً الرابطة الاسلامية ١٩٣٠ م وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وعرض في خطبته فكرة باكستان لأول مرة ، ومثل « مؤتمر المسلمين » في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ م — ١٩٣٢ م ، وأقامت له جامعة أرسطو ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما حفلات تكريم ، توفي في ٢١ أبريل سنة ١٩٣٨ م وشيعت جنازته في حشد كبير قلما شهد مثله ، ورثاه وأبنه كبار الزعماء وقادة الفكر ، ورؤساء الحكومات ، له سبعة دواوين في الفارسية، وثلاثة في أردو ، ومحاضرات في الانجليزية .

وتركيبها ، والفساد الذي عجنت به طينتها لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها ، وعلل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة ، « وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر ، والفكر السامي والذوق السليم [١] » « وتسلط عليها — رغم المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الرابحة — القلق الدائم ، لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها — على كثرة أنوارها — غير متهيئة لفتح جديد في الفكر وإشراق من عالم الغيب [٢] » إنه نوّه بأساس الحضارة اللاّدينية وبأنها عجنت مع الثورة على الدين ، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق ، وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤسس لها معبداً جديداً يقول في ديوانه: «ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق» :

« ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتّانة تجلب فتناً وتعيد اللاّت والعزّى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها ، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لصّ قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً ، وإنها تدع الإنسان لاروح فيه ولا قيمة له [٣] » .

---

(١) ضرب كليم ص ٦٩ .

(٢) ضرب كليم ص ١٤١

(٣) مثنوى بس جه بايد كرد (ماذا ينبغي الشرق أن يعمل) ص ٤١

يقول : إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لايسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء النزيه والإخلاص لله إلاّ حين تنهار هذه الحضارة الجديدة ، يقول في الديوان الذي مرّ ذكره :

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلاّ وليدة دهاء اليهود الأذكياء ، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأساً على عقب[1] »

إنها حضارة شابة ــ بحداثة سنّها ، والحيوية الكامنة فيها ــ ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار » « ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود[2] » . « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لاتحتمل صدمة[3] » ، « إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم[4] » . « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكاناً للقمار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة

(١) أيضاً ص ٣٧ ــ ٣٨ .
(٢) ضرب كليم ص ١٤١ ، يشير إلى نفوذهم الزائد وثقة أوربا النصرانية بهم .
(٣) بال جبريل
(٤) أيضاً ١٧٦

الأمم) يلفظ نفسه [١] » . « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام، ويحول النار إلى برد وسلام [٢] » . « ان عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، ان عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون–حتى في ابتكارهم وثورتهم –عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة [٣] » .

« لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعةفي أوربا ، ولكنها بحر الظلمات ليستفيه عين الحياة ، ان أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء ، وحسن المظهر والنظافة ، ان تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين، انْ هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوربا الآن مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، ان قادتها يمتصون دماءالشعوب وهميلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، ان البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الأفرنجية ، ان الأمة التي لانصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، ان المدنية التي تتحكم فيها الآلات ،

---

(١) أيضاً ١٧٦

(٢) بيام مشرق ص٢٤٨،وفيهأن أوربا لمتكن أرضالنبوة والأنبياءمن الزمن القديم ولم يكن فيها إشراق روحاني إنما ازدهرت فيها الماديات .

(٣) أيضاً .

وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ، والمعاني الإنسانية الكريمة[١] » .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج تفكيرها في محاضراته العلمية الّتي ألقاها في « مدراس » ونشرت بعنوان «تجديدالفكر الديني فيالإسلام[٢]» أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوثالفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب والإنسان المعاصر الذي يمثلها ويتزعمها ، وعن الأزمة والمشكلات التي يعانيها :

« الرجل العصري بماله من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو[٣] » .

« الإنسان العصري وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانيــة الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس ، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبّـه للمال حبّـاً طاغياً، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً، ولا يعود عليه منه إلاّ تعب الحياة ، وقد استغرق في « الواقع » أيفيمصدر الحس الظاهر للعيان ،

(١) بال جبريل .

(٢) Reconstruction Of ReliGious Thought in islam.

(٣) المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ٢١٤ .

فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي (Huxley) وأعلن سخطه عليه[١] » .

« والاشتراكية الملحدة الحديثة ــ ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة ــ لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصبيات على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية[٢] » .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع ــ الأوربي ــ بمجتمع يحركه تنافس وحشي وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية[٣] .

وينظر محمد إقبال ـ ككل مطلع خبير ـ إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية وأسرتين للحضارة الغربية، إحداهما شرقية، والأخرى غربيــة ، تلتقيان على النسب المادي ، والتفكير المادي ، والنظر المحدود إلى الإنسان ، ويقول بلسان جمال الدين الأفغاني ــ في رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها ــ : « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة »

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .
(٢) أيضاً ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .
(٣) أيضاً ص ٢١٧ .

إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلاّ « بالمعدة والبطن » وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون، إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس[١] » .

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة، والجهل بالله والخداع للإنسانية، الحياة عند الشيوعية« خروج» وعند الملوكية « خراج » والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، إن الشيوعيــة تقضي على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المـادة ، جسمها قوي ناضر ، وقلبها مظلم فاجر[٢] » .

الحضارة الغربية والأقطار الإسلامية :

ويعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البـلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول :

« إن الحضارة التي قد أشرفت على الموت لا تستطيع أن تحيي غيرها[٣] ».وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً[٤] رسالته العفة والمؤاساة

(١) جاويدنامه، مأخوذ من « روائع إقبال » للمؤلف ص ١١٣ــ ١١٤ .
(٢) أيضاً .
(٣) ضرب كليم ص ٦٨ .
(٤) يشير الى سيدنا عيسى عليه السلام .

والرحمة،ومقابلة الشر بالخير، والظلم بالعفو،وقد منحته أوربا ـ بدورها ومقابل كل ذلك ـ الخمر والقمار ، والفجور وهجوم المومسات[١] » .

نقده لدعاة التجديد في الشرق

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد ـ وبالأصح التغريب ـ في الأقطار الإسلامية ، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة ومستاراً لتقليد الأفرنج[٢] ، يقول :

« إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق ، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر » .

« إن البحث عن « برق جديد » في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم ، فضلاً عن البرق الجديد[٣] » .

إنه يعارض التقليد الأعمى في أُمة من الأُمم ، ولا سيما الأُمة التي خلقت لقيادة الأُمم وإحداث الثورة في العالم ، ويقول :

« إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان ، لا تعطل شخصيتك ـ أيها المسلم ـ بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد ، إن التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأُمة لا تفكر إلا في الدعة والترف ، إنني

---

(١) ضرب كليم ص ١٥٠ .
(٢) أيضاً ص ١٧٠ .
(٣) ضرب كليم ص ٦٩ ، يشير إلى أن هؤلاء المصلحين ثقافتهم القديمة وثقافتهم الجديدة ضعيفتان محدودتان ، ليس لهم في إحداهما كعب عال ولا باع طويل .

أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب[١]».

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التي كان دورها دور التوجيه والقيادة، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة، والتقليد الذليل، يقول ــ وكأنه يشير إلى الشعب التركي الإسلامي ومن كان على شاكلته ــ :

« إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه[٢]».

وفي « جاويد نامه » يحكي محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التي قام بها أتاتورك في تركيا، ويذكر سطحيتها وتفاهتها، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ومن كل أصالة في التصميم والتخطيط وأنه ليس إلاّ مقلداً أعمى لأوربا، يقول :

« إن كمال الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدّد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة انما هي كلها أغانٍ مردّدة معادة تتغنى بها أوربا من زمان، ان الجديد عنده هو القديم الأوربي الذي أكل عليه الدهر وشرب، ليس في صدره نفس جديد وليس في ضميره عالم حديث فاضطر الى أن يتجاوب مع العالم الأوربي المعاصر، انه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته[٣]».

---

(١) ضرب كليم ١٧٠ .

(٢) بال جبريل .

(٣) جاويدنامه ص ٧٢ .

إيمانه بفضل الحضارة الإسلامية وحيويتها :

انه شديد الإيمان بما تضمره الحضارة الإسلامية والشريعة الإسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة ، وامكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، وتأسيس مجتمع جديـــد ، يقول في خطبته التي ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية في دهلي سنة ١٩٣٣ م مخاطباً للمسلمين :

« إن الدين الذي تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ، ويربيه تربيـة تجعله يبذل كل ما عنـده في سبيل الله وفي صالح عباده ، إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، إن في استطاعته أن يوجد عالماً جديـداً يحيى فيه الفقراء أغنياء ، لا يقوم فيه المجتمع البشري على مساواة البطون ، بل يقوم على مساواة الأرواح » .

المعمل الإسلامي الجديد :

ولذلك كان يعتقد ـ بكل إخلاص وحماسة ـ أنه لا بد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها وشعبها ، وتتجلى فيهـا عبقرية الشريعة الإسلامية وعـدل النظام الإسلامي ، وتستطيـع فيها الطريقة الإسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً ، ولمـا كانت الهند ـ كما قال فى خطبة رئاسته للعصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م ـ قُطراً تسكن فيه جالية تكوّن أكبر مجموعة إسلامية في بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة وبتكوين هـذا المركز الإسلامي وبتعبير أدق المعمل الذي يثبت فيه الإسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح ، وتنظيم الحياة الاجتماعيـة ، وحل المشكلات الاقتصادية ، وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً ، والتطبيق بين العقيـدة

والعمل، والروح والمادة، والفرد والجماعة تطبيقاً يثير العجب والإعجاب، ويحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد ويحمل المفكرين في العالم على التفكير في أسلوب جديد .

كان هذا النظر البعيد، وهذا الطموح الذي لم يعرف نظيره في العالم الإسلامي ، أساس مملكة باكستان ، وقد تحقق هذا الحلم البعيد في سنة ١٩٤٧ م وقامت دولة باكستان ، وقد اعترف الزعيم محمد علي جناح بهذا الأساس الفكري الذي قرره محمد إقبال وتغنى به ، فقال في أول خطبة خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكستان التي كافحنا في سبيلها عشر سنين كوامل حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست غاية ، إنما هي وسيلة ، إن الغاية والهدف النهائي قيام مملكة نعيش فيها أحراراً ، ونتقدم بها وفق طبيعتنا الخاصة وثقافتنا ، وتنفّذ فيها مبادىء العدالة الاجتماعية في الإسلام بحرية[١] » .

وقد صرح بمثل ذلك السيد لياقت علي خان رئيس وزراء باكستان سابقاً في ١٤ يناير ١٩٤٨ م في اجتماع في بيشاور فقال :

« إن باكستان معمل لنا وسنبرهن به أمام الدنيا على صلاحية المبادىء الإسلامية التي جاءت قبل ثلاثة عشر قرناً وقيمتها » .

وقد جاء في حديث آخر له عام ١٩٥٠ م :

« إننا طالبنا بباكستان ليعيش فيها المسلمون وفق تعاليم الإسلام ،

Speeches Quaid - Azam, Mohammad Ali Jinnah,p22. (١)

إننـا أردنا معملاً نقيم فيه دولة مؤسسة على مبادىء إسلامية لم يتمخض العالم بأفضل منها[١] » .

ولكن هـذه العملية - التي لا تساويها عملية في الضخامة والدقة والخطورة وبعد النتائج - لا تقوم ولا تتحقق إلاّ على أيـدي القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الإسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، ويخلصون لها إخلاصاً لا يشوبه نفاق، ويتجردون من ربقة الحضارة الغربية والإيمان بقيمها وأُسسها ، ومن رقّ الثقافـة الأجنبية تحرراً كاملاً ويجمعون - على الأقل - بين الإيمان الراسخ والشجاعة الخلقية والمقدرة على استخدام الوسائل والطاقات التي أحدثتها العلوم الحديثة ، وتكييفها للمجتمع الاسلامي الحر .

العملية في الامتحان :

ولكن هذه العملية - التي قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخيـة وسياسية وفاجآت العالم المعاصر - لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل واعداد هذه القيادة، وقد عجز نظام المعارف الغربي السائد في الاقطار الشرقية، وعجزت الجامعات الغربية التي تلقى فيها هؤلاء السادة ثقافتهم عن أن تنتج أحسن منهم في عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هـذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الاسلوب من الحياة ، والشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا يرجى تغيير هذا الوضع ، ووجود القيـادة التي تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف ونظام التثقيف والتربية في هـذه

---

(١) جريدة «نوائي وقت» الباكستانية ٨ يناير ١٩٥٠ م

البلاد، ويمنح الاسلام والمجتمع الاسلامي حق تخريج واختيار من يتولى قيادته ويقرر مصيره مطابقاً لعقيدته وفطرته وآماله وحاجاته، وهو حق طبيعي لكل شعب ولكل مجتمع، لا يجوز جحوده في أي عصر وفي أي مكان.

ومن المؤسف أنه - في هذه المدة غير اليسيرة - منذ أنشئت باكستان، لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف - التي هي العمود الفقري لتوجيه دولة أو شعب - وإنشائها إنشاءً جديداً يتفق مع روح الاسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلامية ووضع دستور إسلامي وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقي والفوضى الفكرية، ولم تكن هناك محاولة مخلصة جدية تدل على أن باكستان معمل إسلامي جديد تثبت فيه أهمية الحياة الاسلامية وصلاحية القانون الاسلامي وتفوق الحضارة الإسلامية وتقدم فيه أسوة عملية للأقطار الإسلامية الناهضة بل - بالعكس من ذلك - قد برهنت القوانين العائلية (Muslim Family Laws) في عام ١٩٦١م على أن واضعي الدستور في باكستان وولاة أمرها ليسوا مأخوذين بالأفكار الغربية وقيمها فحسب بل يعتبرونها أساساً محكماً للتشريع، ولا يثقون بخلود الشريعة واكتمالها.

وأخيراً وافق مجلس الأمة في نوفمبر ١٩٦٣م في جلسة بداكا (باكستان الشرقية) على هذه القوانين الجديدة ورفض جميع القرارات التي كانت تطالب بتعديل هذا القانون بناء على أنّه يعارض نصوص الكتاب والسنة وينافي الاجماع والتواتر، واطلع الجمهور على أنباء هذه الاجراآت في

صحف باكستان والهند ، فكان فيها ما يلي :

« رفض مجلس الأمة هنا بالأمس بالأكثرية الساحقة القرار الذي كان يطالب به التعديل في « القانون العائلي » وقد قدم هذا القرار أمام المجلس للتغيير في بعض نقاطه ، والمعلوم أن هـذا القانون الذي جرى تطبيقه منذ الحكم العسكري سلب الرجل حق تعدد الزوجات وقد زعم أصحاب هذا القرار أن هذا القانون ينافي الشريعة الاسلامية والقرآن الكريم الذي أباح للرجل تعدد الزوجات بصراحة، ان الطبقة المثقفة في باكستان تقول « إن هذا التعدد أُبيح لحاجات طارئة عابرة ، وكان الغرض منه اصلاح المجتمع تدريجياً » .

فإذا كان موقف باكستان إزاء الأحكام الشرعية المؤزرة بالنص والاجماع ما سبق ذكره فلا نستطيع أن نعقد بها أملاً كبيراً في مجال الحضارة والاجتماع والتعليم والتربية والسياسة والدستور ، الحقيقة أن معظم الأقطار الإسلامية الوليدة تتبع تركيا وتحذو حذوها أو تتأهب للسير وراءها وتقليدها ولا تجد أكثر زعمائها وحكامها إلا وقد تسرب الى قلوبهم حب كمال أتاتورك قليلاً أو كثيراً، وذلك بحكم ثقافتهم الغربية وبيئتهم الغربية .

مهما كان فإن انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية وتقليد البلاد العلمانية (Secular) والعصرية (Modernist) الأُخرى، ستكون مأساة ضخمة في العصر الحديث وغدراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا في سبيلها من المصائب ما يشيب لهولها الولدان ، وقدموا

لها ثمناً من الدماء والأرواح والأعراض باهظاً ،ثم ان هذا النكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينيــة التي لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، والتي دفعت أخيراً الى إنشاء دولة باكستان ، ويزهـد أكثرهم في اعادة هذه التجربة والمغامرة في سبيلها ، ولا يسمح التاريخ الذي سجّل هذه التجربة المخفقة والذي لا يحابي أحداً بتكرير هذه التجربة وعقدالآمال الجسيمة بها ،وقد نبه الى ذلك الاستاذ سمث (Wilfred Cantweu Smith) في اسلوب جميل ، انه يقول في كتابه (Islam in Modern history) .

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الاسلامي صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا في هـذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن ، لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة الى حـــد لا يمكن به التسلل منها والاغماض عنها ، سيكون تاريخهم الآن « تاريخ الاسلام » لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة أنهم لا يستطيعون ـ راضين أو كارهين ـ أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الاسلامي » أو يتركوها لمـدة طويلة في المستودعات ، ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعني التعديل في الاسلوب والمنهج ، بل انـه يعني الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منـه شيئاً واحداً وهو أن نظرية الدولة الاسلامية نظرية فارغة وان شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غـير ، وهي لا تستطيـع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا في تطبيقهـا على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفي هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين

موضع شك ومحل نقاش ونقد في نظر العالم »[١] .

الجماعة الإسلامية في باكستان :

كان من الممكن التفادي من هذا الوضع المؤلم ، وكان من الممكن أن تكسب الفكرة الاسلامية المعركة في باكستان وأن يكون لها انتصار آ دبر على خصومها ومعارضيها وأن تكتسب أكبر عدد من الأنصار والأصدقاء من الطبقة المثقفة والحاكمة،وأن تقصر الفجوة -على الأقل- بين دعاة الفكرة الإسلامية وبين أصحاب الفكرة الغربية حتى يتعاونوا على بناء المجتمع الإسلامي الجديد ، ونجاح التجربة العظيمة التي قامت لأجلها باكستان ، كل ذلك كان ممكناً لو كتب النجاح والتوفيق لدعاة الفكرةالإسلاميةوزعمائها وحازوا ثقةجميع الطبقات في البلادوتقديرها وملأوا الفراغ الهائل الموجود في عقول الطبقة المثقفة ونفوسهاوقلوبها، ووفقوا للجمع بين الشخصية القوية الحبيبة ، والعلم الفائق ، والفكر النير ، والربانية الصافية المشرقة ، والعزوف عن المطامح والمناصب ، والانقطاع للدعوة والتوجيه وبذل النصح للجميع ،الصفات التي تكونت بها العقيدة الدينية في الماضي فأنتجت أكبر انتاج وغيرت مجرى التاريخ في بعض الأحيان[٢] .

كانت الجماعة الإسلامية التي نادت بالحكم الإسلامي في باكستان وتبنت

---

(١) Islam in Modern History P.200

(٢) اقرأ على سبيل المثال المنهج الذي آثره الامام الشيخ أحمد السرهندي في القرن الحادي عشر الهجري لتحويل الحكم الثائر على الاسلام إلى حكومة اسلامية في الهند ، راجع رسالة المؤلف « الدعوة الاسلامية في الهند وتطوراتها » .

قضيته جديرة بأن تحقق هذه الغاية المطلوبة وتملأ الفراغ ، وقد توفرت في مؤسسها الأستاذ أبي الأعلى المودودي صفات عديدة ترشحه للزعامة الفكرية في شبه قارة الهند،منها: صفاء الفكر والاطلاع على مناهج الفكر الحديثة والثقة بفضل التعاليم الإسلامية وجدارتها للبقاء والانتشار ، والاعتداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعة ، والقلم البليغ السيال والاسلوب القوي الدافق ، وقد كان لبحوثه العلمية الاولى التي كتبها في الهند[1] التي كان يتكلم فيها عن مستوى عال وقوة وثقة، ولمقالاته ورسائله دوي عظيم في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقاً فكرياً وكانت في دور انتقال، وجلبت اليه عدداً وجيهاً من عشاق الفكرة الإسلامية وهواة المجد الاسلامي ، تكون بهم جهاز الجماعة الاسلامية الأول وانتقلت القيادة بطبيعة الحال إلى باكستان مجال العمل الاسلامي الجديد الناهض،وخاضت في السياسة واكتوت بنارها وأباحت لنفسها استخدام الأساليب والمناهج السياسية والجمهورية للوصول إلى الحكم ، التي شددت النكير عليها وكانت تعتبرها الشعارات الجاهلية والحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت وسمت ذلك « الحكمة العملية » التي تقبل التغيير والمرونة ، وهنالك دب الخلاف في صفوف الجماعة وانشق عنها بعض كبار المسئولين والذين كانوا في طليعة الدعوة وفي مركز التوجيه،ناقمين على القيادة انها سياسية متقلبة أكثر منها دينية راسخة ، وأنها تتناول مبادىء الإسلام وتعاليمه بتفسير جديد خاضع

(١) وذلك قبل أن ينقسم شبه القارة ويتكون باكستان ، وكان يصدر من حيدر آباد مجلة « ترجمان القرآن » التي كانت تعتبر من أرقى المجلات الاسلامية وأقواها .

للسياسة والمصالح ، وتطور موقفها ومنهج عملها باسم « الحكمة العملية »، وتناولوا شخصية القائد بنقد مر ، وظلت الجماعة تواجه ثورة بعد كل فترة وينشق عنها خيرة رجالها وأنشط أعضائها ، تبين بذلك انه لاثقة بالانصار والمتحمسين يخضعون لقلم بليغ واسلوب ساحر ويلتفون حول شخصية إعجاباً بكتاباتها وافتناناً بأفكارها وبحوثها ، وبعد الخبرة العملية ، والدراسة الشخصية يتحول المادح المطري والمحب المغالي ناقداً لاذعاً وناقماً زارياً .

ولم تزل الجماعة تحتك بالسياسة وتخوض في معركة الانتخابات حتى اصبحت حزباً سياسياً منافساً للحكومة يوزن في ميزان السياسة والاحزاب ، ويخضع للاحداث والتطورات ،حتى انضم أخيراً الى الجبهة الموحدة التي رشحت امرأة للرئاسة واستدلت بالنصوص الدينية واحتدمت المعركة واشتد حولها الجدال وكثر فيها القيل والقال ، وغلب الطابع السياسي على الطابع الديني غلبة أفقدت كثيراً من الثقة التي كانت لاتزال تتمتع بها والاحترام الذي كان لايزال لها في بعض الاوساط ، وانشق عدد آخر من الاعضاء العاملين والانصار المتحمسين بناء على هذا الموقف الذي وقفته الجماعة في معركة الانتخابات .

وقد شغلت الجماعة من مدة طويلة بفعل هذا الكفاح السياسي والعمل التنظيمي عن الانتاج العلمي الجديد واصدار الكتب القيمة في القضايا العلمية الجديدة والموضوعات الاسلامية على شدة الحاجة الى ذلك ، فلم تمد المكتبة الاسلامية الحديثة بكتاب جديد يحتل المكانة الاولى في المكتبة الإسلامية العلمية المعاصرة وبقيت تعيش على ماصدر

من قلم قائدها في الزمن القديم [١] وعلى نقله إلى اللغات وإعادة طباعته، وبقيت قضايا وموضوعات تشغل الفكر الحديث وتطلب الجواب الشافي السريع لايتسع الوقت ولا يتفرغ البال للإسهام فيها ، وكل ما كتبه قائد الجماعة عن النظم السياسية والاقتصادية ونقد مناهج الفكر الحديثة والمذاهب العصرية لايفي بالغرض المطلوب في هـذا الوقت الذي اتسعت وتشعبت فيه هذه البحوث وتضخمت المكتبة الحديثة وليست لهذه الكتابات التي سبقت قيمةٌ علمية كبيرة عند علمائها والمختصين فيها ، وكذلك يتجلى في كثير من بحوثه الدينية ان صاحبها خضع للقيم الغربية والتصورات السياسية ، وانعكست في بحوثه الدينية ظلال هذا التفكير [٢] وبعد فيها عن حقيقة الدين التي دعا اليها الأنبياء عليهم السلام وعن تعبيرهم الخالص .

وبالجملة فمهما كانت الاسباب فقد شغلت الجماعة الاسلامية بنفسها وبمشكلاتها وأزماتها ، واشتدت لها المعارضة من الطبقة المثقفة الحاكمة في جانب ،ومن علماء الدين في جانب آخر ، ولم تستطع ان تكون فوق مستوى الاحزاب والكتل السياسية وأن تؤدي رسالتها العلمية والتوجيهية ـ التي لابقاء لباكستان بغيرها كدولة اسلامية ومجتمع اسلامي تستطيع فيه الطريقة الاسلامية في الحياة ان تعبر عن نفسها وتبرز

(١) يستثنى من ذلك تفسير القرآن الذي ينشر في مجلة « ترجمان القرآن » تباعاً ويطبع في مجلدات باسم « تفهيم القرآن» على ما فيه من مواضع نقد .

(٢) وقد تجلى ذلك بوضوح في كتاب «المصطلحات الاساسية الاربعة في القرآن » وهي من أكثر البحوث سطحية وشذوذا .

محاسنها وكوامنها ومضمراتها التي لانهاية لها ـ ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

أهمية الدور الذي تمثله مصر في العالم الإسلامي :

وكانت مصر ـ منذ عهد محمد علي باشا وجلاء الفرنسيين ـ في ١٧٩٩م المجال الثالث الرئيسي الذي ظهر فيه صراع الشرق والغرب ، الفكري والثقافي والحضاري والاجتماعي في أبرز مظاهره وأقواها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية وبقاء إدارتها وقيادتها للأمور مدة[1] ـ قصيرة بحساب الشهور ، طويلة بحساب التأثير والنفوذ ـ بذوراً عميقة في التربة المصرية ، والعقلية الإسلامية العربية ، واحتك الشرق بالغرب في أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، ووصل بين الشرق والغرب بعثات علمية وثقافية عني بإرسالها محمد علي للاستفادة من الغرب ونظمه وعلومه ، وللتقدم بمصر في مضمار العلم والصناعة والفنون والإدارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم أنشأت ترعة السويس ـ في عهد إسماعيل ـ تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً في تاريخ السياسة والتجارة العالمية ، وترفع الفجوة بين العالمين الغربي والشرقي وتسهل مهمة اللقاء والالتقاء ، وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوربا .

وكانت مصر بخصائصها الكثيرة التي لا يشاركها فيها أحد جديرة بأن تكون ملتقى يلتقي فيه ما فاقت فيه أوربا ـ بجهدها وكفاحها ـ

---

(١) وهي مدة ثلاث سنين وشهرين من ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م ـ سبتمبر ١٨٠١ م

من العلوم التطبيقية ، والوسائل الحديثة ، وما خص الله به الشرق الإسلامي من علم ويقين وأسس صالحة خالدة للحياة السعيدة، ومحركات ودوافع قوية نبيلة لا تنبثق إلاّ من العقيدة القوية والقلب الفائض بالإيمان والحب ، وكانت مصر من أوفر البلاد نصيباً من هذه الثروة الكريمة ومن أقدرها على توسيعها وتوزيعها بفضل غناها في اللغةالعربية والعلوم الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود الأزهر ـ أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي ـ وبفضل مرونة العقل المصري ، وقدرته القديمة على الأخذ والإعطاء ، والتأثر والتأثير ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلاً صالحاً للعالم الإسلامي وللأقطار الشرقية للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة والثقة بالشخصية ، والتمسك بالعقيدة في جانب وروح السماحة والانصاف ، وتقدير العلم والحكمة ، والترحيب بالصالح النافع في جانب آخر ، التبادل الذي لا يخسر فيه الميزان ولا يطفف فيه الكيل .

الحاجة إلى قناة جديدة :

لقد كان لمصر أن تنشىء قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً في اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً في التاريخ الإنساني ، هي قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب ، قناة تصل الشرق المتخلف في العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخم

بقوته المادية ، المفلس في الروح والأخلاق ، البائس المتشائم ، السالك في سبيل الانتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي ، والثقة المتبادلة والأمل القوي في مستقبل الإنسان ، الكامنة في رسالات الشرق الدينية والروحية التي يمثلها الإسلام في شكلها الكامل النهائي ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التي لا تعرف غاية بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التي لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذي يستطيع ولا يريد ، بالشرق الذي يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ، ويتعاونان ــ تعاون الشقيقين ــ في إسعاد البشرية ، وتهذيب المدنية ، هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر ــ لو تحققت وظهرت إلى الوجود ــ فتحاً جديداً في العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها ــ في أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية ــ إيمان قوي بخلود الرسالة الدينية التي أكرمها الله بها بالإسلام، وشدة حاجة الإنسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها ، والاتصاف بصفاتها ، والتفاني في سبيلها، والهضم الصحيح القوي للعلوم العصرية، وتقوية نفسها بها وإخضاعها للدور الذي يجب أن تمثله في العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات موجّهة قوية .

موقف مصر التقليدي الضعيف :

ولكن الظروف والأوضاع السياسية والتعلمية قد صرفت مصر ـ زعيمة العالم العربي الإسلامي ـ عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، ودور التأثير في العالم الغربي ، وجعلتها تقف من العالم الغربي موقف التلميذ ، وموقف المقلد المقتبس ، وجعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجلى فيه شخصية مصر الإسلامية العربية والعقلية الناضجة الناقدة

من أهم هذه الأوضاع التي اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذي أساءت به مصر إلى نفسها، وإلى العالم العربي الذي تولت زعامته وقيادته، الوضع السياسي القاتم الذي كانت تعيش فيه مصر في القرن التاسع عشر، ويشاركها فيه العالم الإسلامي بصفة عامة، عصر النفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني ، الاحتلال المباشر ، أو غير المباشر ، فقد شغل هذا الوضع ـ الغير طبيعي ـ تفكير قادة الفكر في العالم الإسلامي، واستنفد جهودهم ومواهبهم، ولم يدع لهم مجالاً في التفكير ولا سعة في الوقت، ولا فضلاً في الذكاء.

السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده :

كان السيد جمال الدين الأفغاني عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ، ولكن يكتنفها شيء كثير من الغموض ولا يدل ما سجل من حديثه ومحاضراته وكتاباته وما يرويه تلاميذه والمعجبون به من سيره وأخلاقه وعلمه دلالة واضحة على مكنونات نفسه الكبيرة وحياته الشخصية ونظراته في الحضارة الغربية وقيمها ومبادئها ، وقد كان من الرجال المعدودين الذين يؤمّل فيهم أن

يقوموا في ذلك العصر لمواجهة حضارة الغرب وفلسفاته المادية ونقدها، وصيانة الشرق من سيطرتها وسلطانها الفكري ، ومنعه من الانجراف الذي يُفقده شخصيته ورسالته ولكن كتابه الصغير الذي وضعه في الرد على الدهريين وأعداد مجلة العروة الوثقى التي كان الموجه لها والمشرف عليها ، لا تدل على مقدرته على تحقيق هذا الغرض وأداء هذه الرسالة ، ولكن الدكتور محمد إقبال كان شديد الإعجاب بشخصيته ، كبير الثقة بمقدرته في ملءِ الفراغ الذي وقع بين نظام العقيدة والفكرة والخلق القديم وبين نظام العصر الجديد ، وإعادة الثقة إلى الجيل الإسلامي الجديد بخلود الإسلام وجدارته للبقاء والكفاح يقول في إحدى محاضراته التي ألقاها في مدراس :

« إننا نحن المسلمين نواجه عملاً ضخماً ، إن واجبنا أن ننظر في الإسلام من جديد بصفته نظاماً فكرياً ، من غير أن نقطع صلتنا عن الماضي ، إن الرجل الذي قدر أهمية هذا الواجب واتساع نطاقه تقديراً صحيحاً هو السيد جمال الدين الأفغاني الذي جمع إلى بصيرته النافذة في حياة الإسلام الملية ، وحياته الفكرية تجربة واسعة بأنواع كثيرة من البشر وعاداتهم وأخلاقهم، وكانت مقاصده ومراميه بعيدة المدى سامقة الذرى ، لذلك لم يكن من الصعب أن تصبح شخصيته الكريمة حلقة اتصال بين الماضي والمستقبل ، إن جهوده المتواصلة ، لو تركزت على تفسير وضع العقيدة والعمل الذي دعا إليه الإسلام النوع الإنساني لكان لنا نحن المسلمين ، أن نعتمد على أنفسنا ونثق بشخصيتنا أكثر مما نحن

فيه الآن[1] » .

ولكن وضع العالم الإسلامي بصفة عامة ووضع مصر ـ التى قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته وأكثرها إنتاجاً ، واتخذها مركز نشاطه العقلي ـ والطبيعة التي خلقه الله عليها من الذهن الوقاد والذكاء الحاد ، والحمية الإسلامية الثائرة ، والأنفة الأفغانية المتهيجة ، كل ذلك منع جمال الدين عن التفكير في غير إنهاض البلاد الإسلامية سياسة وتنظيماً ، وإعادة الكرامة والقوة إليها ، والربط بين أجزائها ، وإقصاء النفوذ الأجنبي عامة والنفوذ البريطاني ـ الذي اكتوى بناره في بلاده وفي الهند وإيران وفي مصر ـ خاصة ، وطبع نشاطه وكفاحه بطابع السياسة ، وأصاب الدكتور محمد البهي إذ قال :

« (كان جمال الدين) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب ومن تاريخ الأمة الإسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التي تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية (في الهند ومصر على الخصوص) هذه الأمثلة التي كان ينتزعها من شواهد الحياة الإسلامية ، ومظاهرها في وقته ، مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها ، وهدفها الذي نهايته بسط النفوذ الأجنبي لصالح الجماعة الأوربية وحدها على رقعة العالم الإسلامي .

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذي أظهر حركة جمال الدين الأفغاني في صورة حركة سياسية ، وهو نفسه السبب في أن يلقي بمركز الثقل

---

(١) محاضرات مدراس المحاضرة الرابعة ص ١٤٥ ـ ١٤٦ (مترجة من الأوردية)

في نشاطه على « الحرية السياسية» في الشرق الإسلامي، للمواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين[١] » .

وخير من يحق له التعبير عن نفسية السيد جمال الدين وتلخيص دعوته هو تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو يقول :

« أما مقصده السياسي الذي قد وجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته ــ وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله ــ فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفي مجده ، ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية[٢] » .

وكان الشيخ محمد عبده على ما له من حسنات في الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملائمة بين الإسلام وبين الحياة في القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الإسلام والحرص على تفسير الفقه الإسلامي وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة ، والجيل الجديد ، يقرب في ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان في الهند، وتتجلى هذه النزعة في تفسيره وفي فتاواه وفي كتاباته، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٠

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٠٦

واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » يقول :

« إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر ، قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند (مؤسس جامعة عليكره) ثم يقول : إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي[١] ».

ويتكلم نيومان في كتابه : (Great Britain) عن تلاميذ محمد عبده وأتباعه فيقول :

« وكان برنامجهم فوق ذلك يشجّع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب في تعيينه سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف[٢] » .

فضل حركة السيد جمال الدين ومدرسته :

لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع السياسية الجاثمة على الشرق لتدع لمثل السيد جمال الدين الأفغاني ـ في قوة عاطفته وحساسيته ـ حقلاً آخر للنشاط والإنتاج ، وتدعه يعمل عملاً إيجابياً بنّاءاً في المجتمع الإسلامي ، ويقوم بدراسة عميقة تحليلية للحضارة الغربية ، وما يحسن

(١) Modern Egypt , P. 179, 180

(٢) P , 165

اقتباسه منها وما لا يحسن ، وبناء فكر إسلامي جديد يساير الزمان ويتغلب على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره لا يستهان بقيمته في رفع قيمة الدين ، والاعتماد على القرآن في عيون النشء الجديد، وفي إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، إلى نفوس الشباب المثقف ، وحال – إلى حد – بين الطبقة المثقفة الذكية في مصر وغيرها، وبين الإلحاد والثورة على الدين، وكان له فضل في بقاء نفوذ الإسلام الفكري والعلمي في أوساط الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي،وإلى ذلك أشار المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان إذ قال :

« لقد كانت للإسلام سيطرة على حياة مصر الروحية ، ولا تزال كذلك ، والفضل في ذلك يرجع إلى فارسي اسمه جمال الدين ، الذي آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التي قضى فيها شبابه[١] » .

المتخرجون في أوربا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي :

بدأ صفوة الأذكياء وخيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية في مصر ، ثم يؤمون عواصم الغرب ومراكز الثقافة العصرية الكبرى في أوربا للتوسع في الدراسات والتعمق فيها ،ويخوضون هناك في لجة الحضارة الغربية وفي الأوساط العلمية التي اعتادت البحث العميق الدقيق ، واعتادت الحرية الفكرية والشجاعة الأدبية وعافت التقليد والأخذ

---

(١) Carl Brocklemann : Geschichteder Islamischen Voelker Und Staaten Munchen Berlin 1939

بشيء على عواهنه ، فكان من المتوقع ومن المعقول جداً أن يوجد في هؤلاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا في مصر البلد الإسلامي ، وقرأوا القرآن ـ معجزة كل عصر ـ رجال يروعهم ضعف أساس الحضارة الغربية والفكرة الغربية وإسرافها في المادية ، وتطرفها في القومية والنظر المادي القاصر المحدود إلى الإنسان ، وكل ما أنتجه وقام به من مظاهر العقل والروح والبطولة ، ويثير ذلك فيهم النخوة الإسلامية والمعاني الإنسانيةالكريمة العميقة ، ويثير فيهم روح الاستنكار والتمرد على مثل الحضارة الزائفة،ويكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال وثائر وداعية مثل محمد علي (١) وكانوا أولى بذلك من هذين فقد نشأ الاثنان في

---

(١) هو الزعيم الهندي المشهور محمد علي بن عبدالعلي ، ولد في إمارة رام بور (في المقاطعة الشمالية الغربية) سنة ١٨٧٨ م ونشأ يتيماً في حضانة أمه القوية النفس والهمة ، والتحق بمدرسة بريلى الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية عليكرة الاسلامية ، وتخرج فيها في سنة ١٨٩٦ م ، وسافر إلى إنجلترا وانتسب إلى جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة في الليسانس (B. A.) بامتياز وفاق في الأدب الانجليزي ، واحتوى على ثروته الأدبية وأساليب اللغة الانجليزية المتنوعة كأبناء البلاد ، وأصحاب اللغة ، ورجع إلى الهند وشغل وظيفة كبيرة في إمارة « بروده » ومكث فيها سبعة أعوام، ثم استقال وأصدر منها من كلكتا سنة ١٩١١م صحيفة (Comrade) الأسبوعية الانجليزية ، التي نالت إعجاب الانجليز وأدبائهم وحكامهم بأسلوبها الأدبي الرصين والفكاهة الحلوة وانتقل بعد ذلك إلى دهلي ، وأصدر منها صحيفة يومية أردوية سماها (همدرد) ونالت المكانة الرفيعة والقبول العام لصدق لهجتها ، وكتب مقالة مستفيضة في كومريد طويلة بعنوان (Choice of the Turks) « اختيار الأتراك » انتقد فيها سياسة الحلفاء والانجليز بصفة خاصة ، تعتبر من أقوى المقالات التي كتبت في الهند ، أثارت غضب الحكومة الانجليزية فاعتقلته سنة ١٩١٤ م وبقي مدة الحرب العالمية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م حفظ فيها القرآن ودرس الاسلام دراسة عميقة ، وأطلق في آخر سنة ١٩١٩م وأسس الجامعة الملية الاسلامية في سنة ١٩٢٠م، واعتقل مرة ثانية بتهمة اثارة الجيش ضد الحكومة وحكم عليه في كراتشي بسجن عامين وأطلق في آخر سنة ١٩٢٢م، ورأس حفلة المؤتمر الوطني العام (Indian national congress) في كوكنادا في جنوب الهند سنة ١٩٢٣ م ، واعتزل المؤتمر سنة ١٩٢٩م وحضر مؤتمر=

في بيئة بعيدة عن مهد الإسلام ومركز الثقافة الإسلامية ، وجرى في عروقها دم غير عربي وغير إسلامي [(١)] ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلاّ في نادر الأحوال ، ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربي ، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

الدعوة إلى تحرير المرأة وأثرها :

ومن أوضح الأمثلة لذلك كتابان لقاسم أمين أحدهما «تحرير المرأة» والثاني« المرأة الجديدة » [(٢)] .

أمّـا الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف إلى أن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج عن الدين ، وذكر « أن الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً ، يمكن أن يجد في كل زمان وكل أُمـة ما يوافق مصالحها . . . أما الأحكام المبنية على ما يجري من العادات

= المائدة المستديرة سنة ١٩٣٠ م وخطب فيها خطبة عظيمة ، ومات في يوم٤ من يناير سنة ١٩٣١ ، ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن في المسجد الأقصى في احتفال عظيم وجنازة مشيعة تشييعاً عظيما ، ورثاه كبارالسياسيين في الأقطار الاسلامية والهند، واعترفوا بعصاميته وعبقريته الادبية ، وشجاعته السياسية وحميته الاسلامية ، ومن الأقوال المأثورة للمؤرخ الانجليزي الشهير (H . G . wells) : إن محمد علي جمع بين قلب نابليون ، وقلم ميكالى ، ولسان برك .

(١) كان محمد علي من سلالة هندية في شمال الهند الغربي ، ومحمد إقبال أشار إلى أصـله الهندي البرهمي كثيراً ، فيقول في بيت يعاتب فيه شاباً ينتمي إلى أهـل البيت قد تأثر بالفلسفـة تأثراً عميقا ومال إلى الالحـاد « أنت تنتمي إلى سيد بني هاشم في نسلك ، أما أنا ــ المؤمن بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم إيـمانا لايعتريه شك ــ فان طينتي هندية ، وأنا أنتمي في نسبي إلى سومنات ــ معبد الوثنيين القديم ــ وكان آبائي من عباد «اللات ومناة» (ضرب كليم) .

(٢) صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ م والثاني سنة ١٩٠٠ م

والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أُصولها العامة »[١]

وقد تناول في كتابه أربع مسائل ، وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشؤون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني « المرأة الجديدة » فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوربية الحديثة التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين وماجاء من غير طريقه ولا تقبل إلاّ مايقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب ما يفعله باحثوا الاجتماع الأوربيون ، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي)[٢] .

ودعا قاسم أمين في آخر هذا الكتاب دعـــوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضي :

« هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلاّ أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ، ويقفوا على أُصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين ـ ونرجوا أن لايكون بعيداً ـ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا

(١) تحرير المرأة ص ١٦٩ .

(٢) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين الجزء الاول ص ٢٨٢ .

قيمة التمدن الغربي، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا، إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة، وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيماً، في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها، ولغاتها، وكتابتها ومبانيها، وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل، هذا هو الذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوربيين) ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية[1] » .

وقد تبع صدور هذين الكتابين وما قام به الدعاة إلى تحرير المرأة من النشاط والإنتاج والكفاح، حركة حثيثة من الحرية في النساء، والسفور والاختلاط والرحلات إلى أوربا وأمريكا للدراسات، يقول الدكتور محمد محمد حسين :

« وجزع المحافظون لما صحب هذه الحركة من ميل إلى التبرج، ومن نزوع إلى التحرر والانطلاق، وأنكروا ما رأوا من تغير حال المرأة، ومن جرأتها على التقاليد وتمردها على سلطة الأب والزوج، وراحوا يتابعون في ذهول تطور الزي وتقلص الثوب فوق جسدها في سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود »[2] .

---

(١) « المرأة الجديدة » ص ١٨٥ ـ ١٨٦

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين ـ ج ٢ ص ٢٣٥

ويقول متحدثاً عن بعض السيدات المتحمسات في هـذه الدعوة وتقدمهن في هذا المضمار :

« وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوي ، حرم علي باشا شعراوي... وتجرأت هذه المتزعمة على مـالم تتجرأ عليـه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة ، وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف »[١] .

صدى أفكار المستشرقين في مصر :

ورجع كثير من الجامعيين متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ، ويفـكرون بعقله ، ويرددون ــ في بلدهم ــ صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق ، وحماسة زائدة ، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلاّ ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بـكل إخلاص ويشرحها ويدعو إليها في كل لباقة وبلاغة مثل : بشرية القرآن، وفصل الدين عن السياسة ، وأن الإسلام دين لادولة[٢] والدعوة إلى العلمانية ،

(١) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ٢٣٥

(٢) وقد صدر في هذا الموضوع كتاب لعالم ديني من علماء الأزهر والقاضي الشرعي ، شغل الناس وأحدث ضجة في الاوساط الدينية والعلمية وهو كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق. وهو يدل دلالة واضحة جداً على مدى تغلغل فكرة المستشرقين في عقول الطبقة المثقفة ، حتى تبناها عالم ديني ودعا اليها بحماسة وإخلاص ، وهو يدور حول إثبات أن الخلافـة نظام تعارف عليه المسلمون وليس في أصول الشريعة مايلزم بـه ، ويخرج منه بنتيجة إنـكار أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحـكم ومراكز الدولة جميعا من الدين في شيء ، وإنها « خطط » دنيوية صرفة لاشأن للدين بها .

والشك في مصادر العربية الأولى ، والشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة في الإسلام ، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، ومتأثراً به في روحــــه وسبكه ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعوني ، والتغني بحضارته وأدبه وأمجاده ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية ــ والشيوعية الماركسية أحياناً ــ في العصر الأخير ،ترى ظلال الفكر الغربي ، بل التعبير الغربي وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة ، وقد شهد بتغلغل الأفكار الغربية في المجتمعات والدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامي ، وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول : هـ ، أ ، ر ، جب في كتابه « إلى أين يتجه الإسلام؟ » :

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ماوراء المظاهر السطحية ، . . علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية ، بعد أن تهضم وتصبح

جزءاً حقيقياً من كيان الدولة الاسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها [١] »

اتجاه حركة التأليف والترجمة إلى الأدب والاجتماع :

وكان هؤلاء الأدباء والكتاب قد أسدوا معروفاً كبيراً ، وأحسنوا إلى مجتمعهم وبلادهم ولغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة في أغراض العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية ، التي لاتزال المكتبة العربية فقيرة فيها كما فعل الأدباء في اليابان ، فحولوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوربية في العلوم الطبيعية والصناعية ، وكما فعلت دار الترجمة في حيدر آباد، ولكن انصرفت عنايتهم وهوايتهم إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، والروايات والقصص ، وترجمة كتب كثير من دعاة الإلحاد والثورة والاضطراب الفكري في المجتمع الغربي ، التي ساعدت في انشاء التبلبل الفكري والاضطراب الاجتماعي، وضعف شخصية الفكر العربي والأدب العربي ، وأحدثت اصطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر .

وقد وجد لهذا الاتجاه الأدبي كتّاب وأدباء في مصر لهم قيمتهم الأدبية وإنتاج أدبي كبير ، ولكن لم يظهر في مصر ولا في الشرق العربي نوابغ وعبقريون في العلوم العملية ، وفي مجالات الطبيعة والكيمياء ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، يعترف العالم الغربي بتفوقهم في هذه

---

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب « الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر »
Wither islam ? P. 328 - 329

العلوم ، وبقيمة بحوثهم وإنتاجهم العلمي ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

وقد أشار إلى موضع الضعف في إنتاج الأقطار الواقعة في الشرق الأوسط الأستاذ برناردلويس (Bernard Lewis) أستاذ جامعة لندن في مقال له يقول :

« إن العمل المبتكر الأصيل في مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم في الشرق الأوسط مثل ما تقدم في اليابان والصين والهند،إن الجيل الجديد في الشرق الأوسط لا يزال يستخدم وسائل الغرب التي تدخل من دور إلى دور جديد في فترة قصيرة من الزمن ، لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط وبين الدول الأوربية المتقدمة الراقية في العلوم الطبيعية والكفاية الصناعية ، وفي نتيجة ذلك في القوة الحربية ، بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية التغريب في الشرق الأوسط[١] » .

صورة من الحياة الغربية :

ووجد في مصر كتّاب وأدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ، واتخاذها مثلاً أعلى في الحضارة والاجتماع ، وكانت مصر – ببقائها تحت الاحتلال الغربي مدة طويلة ، وبحكم قربها من أوربا وبفقد الدعوات الدينية التجديدية المؤسسة على النقد العلمي – تزداد

(١) مقالة Bernard Lewis بعنوان: «The Middle East Versus the West» في مجلة « Encounter , Oct 1963 » .

انصباغاً بالحضارة الغربية كل يوم ، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً ، حتى كادت تصبح في الطبقة المثقفة والأرستقراطية صورة من الحياة الغربية ، واستطاع الدكتور طه حسين في سنة ١٩٣٨ م أن يصور بلده تصويراً غربياً ، ويقول في كتابه المشهور « مستقبل الثقافة في مصر » :

« حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية[1] » .

« وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة ، نظام الحكم عندنا أوربي خالص ، نقلناه عن الأوربيين نقلاً في غير تحرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية[2] » .

« والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي ؟ على النحو الأوربي الخالص ، ما في ذلك شك ولا نزاع ، نحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة[3] » .

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣١ .

(٢) أيضاً ص ٣٢ .

(٣) أيضاً ص ٣٦ .

ويستخلص من هذا كله النتيجة الآتية :

« كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً[1] » .

دعوة طه حسين مصر إلى اعتبار نفسها جزءا من الغرب :

لقد كان من المتوقع ومن المعقول جداً أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية في الأدب والعلم، الذي حفظ القرآن في الصغر، ودرسه في الكبر وتعلم في الأزهر، ونظر في العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ، ورأى شقاء أوربا بحضارتها المادية وفلسفاتها الإلحادية ، وحكوماتها القومية ، وتذمر مفكريها والعلماء الأحرار فيها ، ودرس تاريخ العرب والسيرة المحمدية دراسة تذوق وإتقان ، لقد كان من المتوقع والمعقول جداً، أن يدعو مصر إلى الاستقلال الفكري والحضاري، وتربية شخصيتها الإسلامية العربية ، والنهوض برسالتها العظيمة التي تستطيع أن تحدث انقلاباً في الأوضاع العالمية ، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى ولو كانت مصر جزءاً من العالم الغربي وقطعة من أوربا ، فالرسالات السماوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات، وهي غنية عن الحدود الجغرافية ، والأدوار التاريخية، وإذا فعل ذلك، وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية،

---

(١) أيضاً ص ٣٤ .

والثورة المصرية المباركة، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق.

ولكن كان من نتائج تغلغل الثقافة الغربية في الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وسيطرتها على التفكير والمشاعر وضعف المجتمع الإسلامي الذي نشأ وعاش فيه طه حسين، أنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب، ويجند كل ذكائه وإنشائه ودراسته التاريخية لإثبات أن العقلية المصرية عقلية أوربية أو قريبة قرباً شديداً من الأوربية، ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية، وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية، وهي منذ قديم الزمان، منذ العهد الفرعوني لم تتأثر بالطارىء عليها في أي عصر، فلم تتغير بالفرس، ولا بالرومان ولا بالعرب والإسلام، « إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط[1] » ويقول:

« إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين[2] ».

وعلى هذا الأساس يدعو الدكتور طه حسين المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم، ومشاركة الغربيين ـ أعضاء الأسرة العقلية الواحدة ـ في جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم فيقول:

---

(١) أيضا ص ٢٢.
(٢) أيضا ص ٤١.

« ...أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب[١] » .

« وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها[٢] » .

مستوى فكري نازل :

إن هذا المستوى الفكري ، مستوى التقليد والتطبيق والتشبه والانسجام بالغرب، وإن قياس التبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافية والتاريخ وطبائع الأُمم وعقلياتها في ضوء التاريخ القديم ، مستوى كنا نتوقع من عالم مصري وأديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ، وقد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين في أقطار غير إسلامية ، فصاروا يلهجون بالجامعة الإنسانية والنظرة الآفاقية والمثل الخلقية والروحية التي هي فوق الحدود والثغور وفوق المناطق الحضارية والثقافية في العالم القديم أو الجديد ، ويكفرون بالروابط التي توزع الأسرة الإنسانية الموحدة بين الأوطان والأجناس والمناطق الحضارية وبين العالم الغربي والعالم الشرقي، وكان المسلم العربي أحق بهذه الفكرة الواسعة ، وأحق بأن يتزعم هذه الدعوة ، ويقودها، فإنه نشأ في ظل « شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ » .

---

(١) أيضا ص٤١ .
(٢) أيضا ص٤٤ .

حركة الإخوان المسلمين وتأثيرها :

إنّ مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، ونقدها النقد الجريء الأصيل ، والظهور أمام الغرب في مظهر الداعي المهاجم كان يطلب دراسة أعمق،وجهوداً أكثر ترابطاًوأكثر تركيزاً ،ومعرفةأدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشدفي الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه ، وتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين ، وموقف المحامي المدافع عن الشريعة الإسلامية الذي وقفه الشيخ محمد عبده .

وقد كان في حركة « الاخوان المسلمون » كبرى حركات الشرق الأوسط الدينية والسياسية أمل كبير في تجديد القوة الإسلامية،لو قدر لها أن تسير سيرها الطبيعي وتؤثر تأثيرها المطلوب ، والتف حولها الباحثون النوابغ والمفكرون الإسلاميون ورجال الاختصاص الفني، والدراسات الواسعة العميقة التي قد بدت طلائعها[١] ، وتملأ الفراغ الفكري في الشرق وتنجح في تأسيس المجتمع الإسلامي القوي المستقل في شخصيته وفي تفكيره وفي وطنه ، ولكن طغيان الجانب السياسي العملي على رجال هذه الدعوة في جهة ومحاربة القوات المتجهة إلى « العلمانية » والاشتراكية لها في جهة أخرى قد حرمت العالم العربي — والعالم الإسلامي بدوره — ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التي

---

(١) في كتاب الأستاذ الشهيد عبد القادر عودة والمرحوم الدكتور مصطفى السباعي، وسيد قطب ومحمد الغزالي والدكتور سعيد رمضان والاستاذ محمد المبارك وأضرابهم .

كانت أقوى انتفاضة دينية وثورة إسلامية في العصر الحاضر ، وكان ذلك رزءاً وخسارة للعالم الإسلامي لا تعوض ، هل كانت حركة الإخوان تملك قدرة على تحقيق هذا الهدف الكبير وإلى أي مدى حققت – بقدر وسعها – هذه المطالب والغايات ؟ إنه شيء التبس على كثير من الناس ، ويجدر في هذه المناسبة بأن نقدم بعض ما جاء في كتاب مفكر غربي لا يمثل الاخوان المسلمين ولا يعطف على قضاياهم وذلك بحذف واختصار، يقول الأستاذ اسمث W.G. Smith في كتابه Islam in Modern History يشير إلى بعض النواحي المهمة لهذه الحركة :

« إنه لا يصح أبداً أن نعتبر الإخوان المسلمين رجعيين على الإطلاق، فإن هذه الحركة قامت بمحاولة تستحق التقدير والإعجاب لانشاء مجتمع عصري على أسس العدالة الاجتماعية وحب الإنسانية الذي هو صفوة القيم والتقاليد القديمة ....

إنها تريد العودة إلى أسس للمجتمع تقوم على قيم خلقية ثابتة مجمع عليها ، وتفكير متزن ، عادل ....

إنها تستطيع أن تحول الإسلام من تحمس عاطفي لأتباعه ومحبيه والمتعبدين له الذين تخلّوا من كل شعور ومن كل نشاط ،أو من حقل قديم لهواة التقاليد المحترفين الذين تشبثوا بالماضي في تفكيرهم وعملهم إلى قوة ناهضة صاعدة تستطيع أن تشق طريقها وسط القضايا العصرية ومشكلاتها ....

إن في دعوة الإخوان حلا عملياً سريعاً لأكثر مشكلات المجتمع ، وإذا لم تقم هناك طائفة أخرى لمعالجة هذه المشكلات بتحمس أكثر ورغبة أكبر ، نستطيع أن نؤكد بأن حركة الإخوان سوف تعيش وتستمر رغم سوط الإرهاب والاستبداد ، إن الإخوان هي الحركة الوحيدة في هذا الزمان (عدا الشيوعيين) التي قدمت أمام النّاس فكرة تجاوزت تقديساً باللسان وتشديقاً بالكلام إلى كسب التأييد والولاء بنطاق أوسع[1] » .

ثورة ٢٣ يوليه في مصر :

لم تزل الثقافة الأجنبية ــ في داخل البلاد وخارجها ــ ولم تزل الدعوة إلى « التغريب » والفلسفات الغربية المادية التي ترد إلى البلاد من الخارج ، ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب في البلد، تعمل عملها الطبيعي في أذهان الناس وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشيء والضباط في الجيش،وكل ذكي وثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التي لا تطاق،وتظهر في هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرؤها الشباب عند المراهقة الفكرية فيسيغونها وتصبح جزءاً من فكرتهم وعقيدتهم ومطامحهم في الحياة،وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجاراة الدول والأقطار الحرة الراقية ، وتعجز المعارف ووسائل التربيـة والتوجيه والأدب المقبول عن أن يخلق في هؤلاء تفكيراً أسمى وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة

---

(1) Islam in Modern History . P . 161,162 .

المرددة في كل بلد ، والتي سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحققت له الزعامة في حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلامي الإيماني إلى الأساس الغربي المادي،فيحاولون تقليدهاوتطبيقها في بلادهم باختلاف نوع القومية[1] ، وبزيادة الاشتراكية التي لم تبلغ في عصر كمال أتاتورك هذا الطور الواضح المتميز القوي ، ولم تكسب هذه السيطرة ، وهذا السحر على العقول والأفكار ، ولم يبق لهذه الطبقة إلاّ أن تتولى القيادة وتجد فرصة لتطبيق مخططها الفكري .

جاءت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ م ونجحت بطبيعة الحال ورحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة وكل محب للبلاد وللنهضة والقوة والاستقلال، وعقد بها الناس ـ على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم ـ آمالاً كثيرة مختلفة ، وكان في إمكانها واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة في العالم العربي الزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام في العالم الإسلامي ، وأن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تنهج نهجاً في الحياة يوافق طبيعة الشعب المصري المسلم القوي في إيمانه وفي عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربي الذي أبى الله أن ينهض ويتحد ويسود إلا بهذا الدين الذي اختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الإسلامي الذي لا ينشط ولا يتحمس ولا يرتبط إلاّ بدعوة دينية، ويوافق طبيعة العصر الذي ضاق بالقوميات وتخطى ـ في سيره الحثيث ـ العصبيات التي تقوم على أساس العنصرية أو اللغة أو اللون أو الوطن ،

---

(١) القومية العربية بدل القومية التركية .

وصار ينظر إلى هـذه الروابط والجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية والوحدة البشرية،وينتظر من شعب عربي قيادة أوسع نظراً وأكثر « تقدمية » من القوميات، وكل ينتظر من قادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع ، وصدراً أرحب ، وذكاءاً أكثر عمقاً ، وتخطيطاً أكثر أصالة ، ومطابقة للواقع .

محاولة تطوير المجتمع المصري والعربي كليا :

ولكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة فكرة مستقلة ، وفلسفة قائمة بذاتها ، وخطة كاملة مصممة تصميماً دقيقاً لتطوير المجتمع المصري - وبواسطته وعن طريقه - المجتمع العربي تطويراً قومياً مادياً اشتراكياً، حتى يصبح مجتمعاً جديداً، « يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة[١] » . وينظر إلى الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة ، كأسس الحياة وأهداف النضال[٢] ويبحث عن جذور النضال المصري « في التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى[٣] » ويحدد نضاله للأمة العربية التي تقوم على وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل ، ووحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ووحدة الأمل التي تصنع

(١) نفس التعبير الذي جاء في النص الرسمي لميثاق العمل الوطني الذي قدمه الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الوطني القومي للقوى الشعبية في يوم ٣١ مايو ١٩٦٢، انظر الباب الأول ، نظرة عامة

(٢) أيضاً .

(٣) الميثاق القومي الباب الثالث .

وحدة المستقبل والمصير[١] ، أما الدين الإسلامي ـ الذي هو دين العرب إلاّ من شذ منهم ـ فينظر إليه كأي دين من الأديان الكثيرة التي تدين بها أُمة أو بلاد ، ويضعها جميعاً في صعيد واحد ، ومستوى واحد ، ويسمح لها بالبقاء ، ويعترف بها ـ جميعاً ـ بالشرف والتأثير « إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة ، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة[٢] » . يتكلم عن هذه الأديان كأي اشتراكي مادي لا ينظر إلا إلى قيمة الأديان المادية والثورية ودورها في التاريخ الإنساني ، وكأنه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمة العقيدة الدينية والثواب الأخروي « إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته[٣] » ويظر إلى المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة لا تتقيد بالتشريعات الإسلامية والحدود التي بينها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربي والتفكير العصري ، فالمرأة في نظره « تتساوى بالرجل ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشترك بعمل وإيجابية في صنع الحياة[٤] » .

---

(١) أيضاً الباب التاسع .
(٢) الميثاق القومي الباب السابع .
(٣) أيضاً : الباب السابع .
(٤) أيضاً ، الباب السابع

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التي تسيطر على هذا الميثاق وواضعه،والتي دفعت إلى سبكه في هذا القالب هي الفكرة المادية ، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلمة العرب ومصر التي تتردد كثيراً وما يدل على البيئة التي صدر فيها هذا الميثاق ، وينسبه إلى أي جمهورية علمانية اشتراكية في الشرق ، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية، وقداستها ، وبتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان في تاريخ الإنسان والمدنية .

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصري وتطوير العقلية المصرية - كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية - فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة، وجعلوا الأدباء والكتّاب يتغنون بها، كالهدف الأسمى،ويتغنون بأمجاد العهد الفرعوني ،والدعوة إلى إحيائها،والفرعونية كقومية وحضارة وتراث،وهتف الهاتفون : « نحن أبناء العرب والفراعنة » ولم تعد كلمة «فرعون» تثير في النفوس الكراهية والاحتقار ، ومعاني اللعنة والعار ، التي ألحقها به القرآن ، وآمن بها المؤمنون في كل مكان وزمان ، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله في العزة والكرامة ، فيقول القائلون : «العزة لله وللعرب» ويرحبون بكل من يغلو في ذلك ويبالغ ولو وصل إلى درجة الكفر وخرج من الإسلام ، ويشجعون على ذلك بالجوائز والصلات وأنواع التحبيذ وأساليب التحسين ، وأرخوا العنان للكتّاب والصحفيين يسترسلون في ذلك ما شاؤوا ، وسمحوا للصحف أن تستهزىء بالدين

وشعائره ومقدساته وتنتهك الحرمات وتنشر في المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة،ولم يزدها التأميم إلاّ خبالاً وإسرافاً في نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة والقصص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام،حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية وتأخذ لونها المادي ، وطابعها الاشتراكي .

واتخذوا لتطوير المجتمع خطوات إيجابية أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعي ، والوقف الشرعي ومن التعليم المختلط والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية، والرقص والغناء.

تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي :

وأصبح الشباب العرب ، وكل ذي طموح ممن تمنى مجد العرب وتمنى لهم كياناً ودولة قوية موحدة تقوم في الشرق الأوسط يتخذ دعاة القومية العربيـة مثلاً أعلى ويدين بحبهم ويعتبر هذه الحركة انتفاضة الروح العربية، تعيد إلى العرب كرامتهم ومجدهم الغابر وسيادتهم المسلوبة ، ولا غرابة في ذلك ، ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد والغلبة والقوة ، وللشباب العرب كل حق في أن ينشدوا المجد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على الوحدة بالنواجذ ، ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ قد اقترنت بهذا الاتجاه والتفكير في العهد الأخير معان وحوادث وتصرفات، وتوجيهات، تضعف قيمة الإسلام وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتهم عن إخوانهم في العالم الإسلامي ، وتنشىء فيهم

المبالغة في تقديس القومية العربية ، والتعصب لها، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدي،وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعةغريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين،وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم ﷺ كمنقذ للعرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود لهذا الشعب العظيم، ويرجعون إلى الماضي السحيق ويحيون أمجاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذمت وتأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية :

إنه نذير شر خطير،وطليعة ردةفكريةوثقافية ودينية لايتداركها ولا يجبر كسرها أعظم مجد ، وأقوى دولة، وأكبر نهضة، وأهول قوة، إنها خسارة ليست فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزي والعار ، والتشتت والفرقة، والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق، والخيبة إثر الخيبة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون ، ويصدق عليهم قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياةالدنيا،وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا*[١] ».

سوريا والعراق :

إن هذه البلاد الإسلامية الخصبة الغنية التي تعيش فيها الأغلبية

---

(١) الكهف .

الساحقة من المسلمين[١] ، والتي تملك رصيداً عظيماً من التراث الإسلامي الحضاري المشرق ، والتي عاشت كمركز الخلافة الإسلامية برهة طويلة من الزمن مرت بأدوار سياسية مختلفة ، وثورات عسكرية مرتجلة متلاحقة منذ تحررها من نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني . إن هذين البلدين العربيين المسلمين أصبحا تربة صالحة لنزعات الغرب العقلية والخلقية والاجتماعية ، ولا تزال الطبقة المثقفة ، والزعماء السياسيون والحكام يزدادون تحمساً للقومية العربية، والعلمانية والتجدد والتغريب، ورغم أن الجماهير فيها لا تزال على إسلاميتها وحبها للدين ووفائها له ، وكثير من التقاليد الاجتماعية القديمة باقية ، ويوجد فيهما عدد وجيه من العلماء المتضلعين قلما يوجد لهم نظير في البلاد الإسلامية، إلا أن سيطرة الدين في المجتمع لا تزال تضعف وتنهار ، واحترام العلماء ومكانتهم في المجتمع مهددة بالزوال ، وحرية المرأة وتبرجها ينتشران بسرعة ، والمهرجانات الثقافية واختلاط الجنسين في تقدم وازدياد، والتعليم المختلط نال رواجاً عاماً في الشعب، وظلت العناصر اللادينية تستولي على أزمة البلاد وتتحكم في رقاب الشعب .

ومن الدليل الساطع على نفوذ الفكرة القومية واللادينية ومدى تغلغلها في المجتمع أن حزب البعث العربي الاشتراكي استطاع أن يسيطر على العراق مدة واستطاع أن يبقى في الحكم في سوريا مدة أطول .

وشعار هذا الحزب وهتافه ونظرته إلى الأُمة العربية والوطن العربي هو كما يلي : العرب أُمة واحدة ذات رسالة خالدة ، تعتبر الأرض

(١) نسبة المسلمين في سوريا ٩٠٪ وفي العراق ٩٣٪ .

التي تسكنها وطنها العربي « الأرض التي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة ، والصحراء الكبرى ، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط[١] » .

نقدم هنا مقتطفات من كتابات زعمائه ورجاله المسئولين تلقي الضوء على تفكير هذا الحزب ومبادئه :

١ ــ الأمة العربية وحدة ثقافية وجميع الفوارق القائمة[٢] بين أبناءها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٢ ــ الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ، وترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ ــ « حزب (البعث العربي الاشتراكي) قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ،وبأن الشعور القومي الواعي الذى يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسئولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً » .

٤ ــ حزب (البعث العربي الاشتراكي) اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مطّرداً في إنتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً بين أفرادها » .

---

(١) الأحزاب السياسية في سوريا ص ٢٤٤ .　　(٢) الفوارق الدينية أيضاً .

٥ ـ الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة أمة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمة.

٦ ـ يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية تنسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها[١] » .

إن مؤسس هذا الحزب ورأسه المفكر هو الأستاذ ميشيل عفلق (المسيحي) ، وقد صرح بأفكاره وآرائه في كتابه «في سبيل البعث». نقتبس منه ما يلي :

« ـ من الطبيعي أن يستطيع أي رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد ما دام ينتسب إلى الأمة التي حشدت كل قواها فأنجبت محمداً ﷺ أو بالأحرى ما دام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التي حشد محمد كل قواه فأنجبها في وقت مضى تلخصت في رجل واحد كل حياة أمته واليوم يجب أن يصبح كل حياة هذه الأمة في نهضتها الجديدة تفصيلاً لحياة رجلها العظيم ، كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمداً » .

« ـ إن تأجيل ظفر الإسلام طوال تلك السنين كان بقصد أن يصل العرب إلى الحقيقة بجهدهم الخاص وبنتيجة اختبارهم لأنفسهم وللعالم ، وبعد مشاق وآلام ، ويأس وأمل ، وفشل وظفر ، أي أن يخرج الإيمان وينبعث من أعماق نفوسهم فيكون الإيمان الحقيقي الممتزج

(١) الاحزاب السياسية في سوريا .

مع التجربة المتصل بصميم الحياة، فالإسلام إذاً كان حركة عربية وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها » .

« ــ الإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول، فهو إذاً في واقعه عربي وفي مراميه المثالية إنساني ، فرسالة الإسلام إنما هي خلق إنسانية عربية » .

« ــ إذاً فالمعنى الذي يفصح عنه الإسلام في هـذه الحقبة التاريخية الخطيرة ، وفي هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور ، هو أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم وأن تحصر هذه الجهود في نطاق القومية العربية » .

« ــ الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقيـة إذ تقرر انفصال القوميـة عن الدين لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخهـا ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج بتاريخهم ، في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحـدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر[١] » .

إيران :

وقلّـدت إيران تركيا في عملية التطوير الفكري والحضاري ومـا

(١) ميشيل عفلق في كتابه « في سبيل البعث » تحت عنوان « ذكرى الرسول العربي »

يسميه زعماء التجدد « بالإصلاحات » وقد بـدأ هذه الرحلة الشاقة ملك إيران السابق رضا شاه البهلوي (١٩٢٥ م ــ ١٩٤١ م) أيام حكمه، واتخذ لذلك خطوات حاسمة إيجابية . كان تأثيرها في المجتمع الإيراني عميقاً وبعيد المدى ، يستعرض الاستاذ (George Lenczowski) المعلم في جامعة كليفورنيا في كتابه (The Middle East in worid Affairs) «الشرق الأوسط في القضايا العالمية » تاريخ هذا التطوير في اختصار فيقول :

« لم تكن مشاريع رضاشاه الإصلاحيةمحدودة في نطاق تقدم إيران صناعياً ، إنه حاول أن يجعل إيران مطابقة للعصر الجديد في مجالات التعليم والاجتماع، وبلدةً عصرية متحضرة. في عام١٩٢٧ م قرر تنفيـذ القانون الفرنسي،وكان تحدياً لصلاحية المحاكم الأهليةوجدارتهافي الشؤون المدنية والاجتماعية،وبدأت النزعةالعلمانيةفي كل ذلكواضحة جلية، بيد أنها لم تظهر علناً وجهاراً كما كانت في تركيا ، إنه شعر بأن نفوذ علماء الشيعة الرجعيين المتزمتين حجر عثرة في تغريب البلاد ،فخطى لذلك خطوات وئيدة ، إنه تلقى درساً من إخفاق تلك الثورة التي قامـت للدفاع عن الديمقراطية في عام ١٩٢٤م،ومن إخفاق الأمير أمان‌الله خان ملك أفغانستان البلد المجاور في إصلاحاته ، وهوأن الشيء الذي أمكن في تركياذلك البلد شبه الغربي،لايمكن في إيران في هذاالوقت ثم إن الدستور الإيراني ينص بصراحة على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، وان الطائفة الجعفرية (الشيعة) هي الطائفة الرئيسية التي يعتمد عليها، ويجب على ملك إيران أن يكون من أتباع هذه العقيدة وداعياً إليها ، كما أنـه ينص على أن مجلس إيران « البرلمان الإيراني » ليس له الخيار في وضع قانون ينافي مبادىء الإسلام وكان من اللازم أن يساهم في وضع

هذا القانون وتنفيذه خبراء الشؤون الدينية وأهل الاختصاص من العلماء أيضاً ، وهنالك يكون هذا القانون شرعياً ولازماً ، وكان الملك يشعر بأنه لايستطيع أن يعارض هذه المواد الدستورية الصريحة ،فاتخذ لذلك تدابير سياسية بدلامن أن يهاجمها علناً ، إنه رأى الإغضاء عن رجال الدين وتجاهلهم أحسن وأقوم من معاكستهم أو معارضتهم .

كانت عملية إنشاء نظام تعليم عصري وإثارة الحرية واليقظة في المرأة تتوقف على أن يتقلص ظل رجال الدين ، ويقل نفوذهم وتأثيرهم في الشعب ، وقد قطعت البلاد شوطاً كبيراً في هذا المجال خلال الحرب ، وأصبحت مادة التعليم الديني في المدارس الابتدائية والثانوية غير إجبارية من عام ١٩٣٠ م عنيت برامج التعليم بإثارة الوطنية والشعور المدني عناية خاصة ،ونالت الرياضة والألعاب تشجيعاً كبيراً ،وأنشئت عدة ملاعب جديدة ضخمة في المدن الكبيرة ، وأصبح الالتحاق بالكشافة للبنين والبنات إجبارياً للشباب ، وذلك لبث روح القومية في الجيل الجديد.

هذه النشاطات أبعدت شباب البلاد عن ممارسة الشئون الدينية والتفكير على الأسلوب الديني ، وفي عام ١٩٢٨ م ضرب النفوذ الديني ضربة قاصمة بمنع الزي الشرقي ، وحل محل الطربوش والعمامة القبعة البهلوية ولم تلبث أن جاءت مكانها القبعة الأوربية ، واتخذ الملك أساليب مختلفة لإثارة الوعي والحرية في المرأة ، وقيد البرلمان حرية الطلاق للرجل نزولاً إلى رغبته وتوجيهه ، وسمح للمرأة التوظف في الدوائر الحكومية والمصالح الرسمية ، ولو أنها لم يؤذن لها بالدخول في التمثيل السياسي ، وأصدر التعليمات للضباط العسكريين والمدنيين لتشجيع

الزي الغربي للنساء ، وفي عام ١٩٢٥ م اشتركت ملكة إيران نفسها وأميرات العائلة الملكية في مناسبة عامة في الزي الغربي ، ومنذ ذلك الحين ، منع الحجاب ، ووقعت اضطرابات ، ولكن تدابير الحكومة الصّارمة تغلبت عليها ، واضطر الجميع أخيراً إلى الخضوع أمام القانون ، وبدأت عملية إصلاح اللغة ، وكان هدفها تحرير الفارسية من نفوذ االغة العربية ، وكان ذلك أهم موضوع للمجمع الأدبي (Acadamy of Litarature) الذيانشيء عام ١٩٣٥م ، ولو أن الحروف لم تتغير فيها كما حدث في تركيا ، وفي مارس ١٩٣٥م اصبح اسم هذه الدولة ايران بقرار رسمي بدلا منفارس أو برشيا الذي أطلقه اليونان» [١] [٢]

ورأى الملك محمد رضا بهلوي ملك إيران الحالي أنه قد جاء أوان الاصلاحات والتطورات الأخرى في البلادفأضفى على بعض القوانين والإصلاحات صفة دستورية ، وقرر الغاء الاقطاع ملكية الأراضي ، وقرر حق التصويت والترشيح للمرأة كدستور وقانون رسمي ، وقام علماء إيران بالاحتجاج والمظاهرات ضد هذه الاجراءات ، ووقعت اضطرابات واشتباكات في البلاد ، ولكنها لم تحدث أي تغيير في موقف الحكومة .

إندونيسيا :

إن موقفالدولالإسلامية المستقلةالمتحررة ازاءالتجددوالتغريب ، ونزعتها العامة القوية لضرورة علمانية الدولة ، واعتبار القانون

(١) **والعرب أيضاً .**

(٢) The Middle Eastin World Affairs P. 180-182

الإسلامي غير صالح للتطبيق في هذه الحياة ، والانسياق مع الأفكار الغربية واقدارها ، موقف لا يستثنى منه هذا البلد المسلم الذي يكون المسلمون فيه نسبة تسعين في المائة من النفوس ، وبالرغم من ذلك الصراع العنيف الطويل الدامي الذي ظل عدة سنوات باسم حركة دار السلام وكاد أن يحتضر ويلفظ نفسه الأخير ، لاتزال الطبقة الحاكمة فيها بقيادة الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو تسوقها إلى تقليد تركيا بتصميم دقيق وتخطيط سابق ، وقد علق عليها المعلق الأمريكي المشهور لويس فشر (Louis Fisher) في كتابه (The story of Indonesia) وصور الأوضاع فيها بلباقة ، وعبر عن تفكير الطبقة الحاكمة وعقليتها تعبيراً صحيحاً :

« إن البلد المسلم الوحيد غير الشيوعي (Non _ Communist) الذي مر بثورة حضارية عميقة هو تركيا ، التي ألغى فيها كمال أتاتورك دين الدولة الرسمي (الإسلام) وقرر إلغاء المحاكم الشرعية والخلافة ، والحجاب ، والحرم ، واستعمال الحروف العربية ، وأصبح الزي الغربي والحروف اللاتينية التعليم الإجباري العام ، وحق المرأة في الانتخاب ، وعطلة يوم الأحد ، والقومية من الأمور التي نص عليها الدستور ، أما اندونيسيا فلم تكن هناك حاجة إلى تغيير أو إصلاح من مثل هذه « الإصلاحات » فقد وصلت اندونيسيا إلى هذه الدرجة من التغريب من قبل ، جمهورية اندونيسيا علمانية ، ولو أن دستور ١٩٤٥ و ١٩٥٠ يعلنان أن أساس هذه الجمهورية هو « الإيمان بالله » ولكن الإسلام لا يشترط لأي موظف في الحكومة ، ولا لأكبر ضابط أو رئيس جمهورية ، ولا يلزم عليه أن يقسم بالله أو بمحمد

ﷺ في ولائه [١] وكل انسان حر في اعتناق أي دين والتمسك به في ضوء الدستور .

إن هذا البلد الذي يحمل طابعاً غير إسلامي وغير ديني أثار على نفسه عدداً ضخماً وجيهاً من سكانه ، فشنوا على حكومته حرب العصابات Guerilla war كانت أطول الحروب في تاريخها ، وانفقت عليها أموالاً طائلة ، وليستدل لتبرير العلمانية ، بأن كثيراً من الطوائف أمثال المسيحيين والهنادك يعيشون فيها ، ولكن الدليل الحقيقي الذي لا ينطق به اللسان إلاّ قليلاً ، هو أنه لا يمكن لأي دولة عصرية أن يحكم عليها بمبادىء القرآن وتعاليمه التي انزلت قبل ثلاثة عشر قرناً على محمد ﷺ ، ونقطة أُخرى أنه إذا حل القرآن محل القانون يصبح علماء الدين المترمتون لهم الحق وحدهم في تفسيره والدفاع عنه، وتتسم السياسة بطابع قديم يرجع إلى مئات السنين ، إن معظم الأحزاب السياسية ، والزعماء والقادة وأهل الفكر والرأي متنورون ، ومن دعاة العلمانية التي تدعو إليها عقلية العصر الحديث ، ويعتقدون أن الجهاز العلماني أحرى وأجدر لدولة إسلامية ،وهكذا ترى أكثرهم يفكرون على الطراز الغربي وطابعه [٢] .

الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً في طريق « التغريب » :

وأخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين، وقصة كثير

---

(١) الكاتب الأمريكي لايعرف أن الحلف بنبينا صلى الله عليه وسلم غير جائز في الاسلام

(٢) The Story of Indonesia _ P . 260 _ 261

من الأقطار الشرقية التي تحررت ونالت استقلالها في مدة قريبة، يظهر أن زعماءها وولاة الأمور فيها قد صمموا على تطبيق الفلسفة الفكرية الغربية - بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية - وفلسفة القومية المادية في بلدهم الإسلامي، فهم في حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق، وفي صراع مع الجهاز الاجتماعي والعلمي والخلقي، الذي فيه الخير الكثير والقوة التي ترهب ويحسب لها الحساب، ويمكن أن تنمى وتستغل لصالح الأمة والبلاد، وفي صراع مع المعنويات التي نشأت ورسخت في نفوس أفراد هذه الأمة وأجيالها، بجهود جبارة ودماء زكية سخية، وإخلاص ليس له نظير، وعلى حساب الإيمان - بالله وبالرسول وبالغيب - الذي لا يصنع في المصانع، ولا يولد بالخطب الرنانة، ولا يخلقه إلاّ تأثير الرسل وشخصيتهم القوية، وجهود الدعاة المخلصين من الطراز الأول، والذي إذا فقد من الأمة لا يعود بسهولة، ولا يملأ فراغه شعور قومي، أو وعي سياسي أو تقدم في المعرفة والثقافة، والذي صنع المعجزات في القديم، وخليق بأن يصنعها في كل وقت، وعلى حساب العاطفة الدينية التي يرجع إليها الفضل في الفتوح والانتصارات القومية والسياسية، وتجلت قوتها في معركة القناة، وتحرير الجزائر، وتكوين دولة على أساس الإسلام والقومية الإسلامية في شبه قارة الهند[١] لا يحلم بها عصر السياسة الوطنية والعلمانية.

إنها مأساة أليمة ومهزلة تاريخية في وقت واحد أنه إذا كانت هذه

---

(١) وهي دولة باكستان.

البلاد في حاجة إلى التخلص من الاستعمار الأجنبي ، وكانت في حاجة إلى تضحيات الشعب وجهاده وحماسته ، الشعب الذي لا يعنيه شيء مثل ما يعنيه رضا الله وثواب الآخرة وسيادة الإسلام ، والذي لا يفهم لغة غير لغة الدين ، ولا يثير فيه الحماس ولا يحرك ساكنه هتاف غير الهتاف الديني ،يقوم الزعماء وأبطال جهاد الحريةفيهذه البلاد فيتكلمون بلغة الدين ويدعونه إلى المغامرة والمجازفة بالحياة،وبذل النفس والنفيس واقتحام الأخطار بالشعارات الدينية ولإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام ، وينتصرون على العدو القاهر ويذللون كل عقبة بفضل قوة الإيمان التي لا يوجد لها نظير في الأمة الإسلاميةعلىأقل تقدير ويرغمون خصومهم الأقوياء وأعداءهم الجبابرة على الخضوع والاستسلام ، ولكن لا يجتازون هذه المرحلة العابرة ، ولا يأخذون زمام القيادة والسلطة ولا يملكون (على حد تعبيرهم) مصير الشعب وناصيته ، إلا ويسوقون بلادهم إلى التغرب والعلمانية Secularism ويبدأون عملية إصلاح الدين واحداث التغييرات في قانون الأحوال الشخصية وصهر البلاد فيبوتقة الغرب ويتظاهرون فيه بسرعة عجيبة وحرص بالغ يجعل هؤلاء الذين قاموا بالتضحيات الكبيرة في هذا السبيل ، يعتقدن لعلهم أخطأوا أو جنوا على أنفسهم وبلادهم بالكفاح الذي قاموا به لأجل تحرير البلاد ولعل استقلال البلاد قد عاد وبالاً وشؤماً على الحياة الإسلامية والحرية الدينية .

فمن عام ١٩٢٤م إلى عام ١٩٦٢م ومن تركيا إلى الجزائر قصة واحدة

ذات فصول وحلقات ، لا تستثنى منها دولة إسلامية ، ونرى أن الدول العربية ـ بنفسها ـ أيضاً تتقدم إلى هذا الهدف بنفس العزم والحماسة والقوة ، وتقتفي أثر تركيا التي كانت في زمن من الأزمان ناقمة عليها ثائرة ضدها ، والتي لا تزال تتظاهر باستنكارها واستيائها لسياستها حتى الآن .

تونس :

إن تونس في مقدمة البلاد العربية التي نالت الحرية والاستقلال في عام ١٩٥٧م ، وبدأ رئيسه الأول الحبيب بورقيبة بعملية التجدد وتنفيذ الإصلاحات الكمالية في هذا البلد العربي المسلم المتحمس ، ان تصريحاته وأحاديثه التي يدلي بها بين حين وحين الى الصحف تدل بصراحة ووضوح أنه يريد أن يسير بهذه البلاد الى الطريق الذي سارت عليه تركيا من قبل ، وينشىء تونس الحديثة كما تملي عليه ثقافته الفرنسية ، ونقدم هنا رأي جريدة فرنسية معروفة بدقة التحري كجريدة «لوموند» الباريسية تنفي وجود الاتجاه اللاديني في الجمهورية التونسية ، ففي سلسلة تحقيقاتها عن تونس المستقلة على عتبة السنة الثالثة نجدها تنشر في الفصل المعنون « بين العرب والإسلام » بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٨ م :

« لقد وضع السيد الحبيب بورقيبة حداً لتعدد الزوجات[١] وللطلاق الانفرادي وللاستبداد الزوجي، وجعل قبول الزوجين معاً اجبارياً ، هذا التحرير العائلي يتضاعف بتحرير سياسي واجتماعي ، والنساء منذ

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٨ م ثم منع تعدد الزوجات بتاتاً .

الآن ناخبات ومنتخبات (١١ مستشارة بلدية انتخبن في السنة الماضية) ويدخلن في جميع الوظائف ، ويوجد من بينهن فعلاً نحو مائة في التعليم و ١٥٠٠ في الإدارات و ٧ آلاف في المشاريع المختلفة .

إن تونس في هذا الميدان تظهر بمظهر الأمة المرشدة ، لقد نهجت الطريق المفتوحة من طرف تركيا الكمالية ، فالتطور في تونس ذو احساس دقيق بصفة خاصة فالحجاب أخذ يقل خصوصاً عند الفتيات، وظهور الأزواج في الأزقة أصبح أكثر عدداً ، ويزداد يوماً عن آخر جلوس الرجال والنساء جنباً الى جنب في الاجتماعات السياسية ، وفي البوادي حيث المعارضة أقوى نجد التقدم أقل سرعة .

إن بورقيبة لم يحاول أن يفرض هذا التطور ، بل إنه يفضل أن تسقط هذه « الخرق الشنيعة » من ذات نفسها ، وهو يدافع عن نفسه أيضاًضد اللادينيةوبالأحرىأن يريد الانفصالعنالإسلام، ولكنه يبذل جهده للتوفيقبين الحضارة العصرية الضرورية والتقاليد الدينية ،ويهتم بالتدليل على أن إصلاحاته إذا كانت لاتحترم دائماً النصوص الحرفية للقرآن فإنها لاتخون روحها ،وبهذا الاعتبار فإن الاتجاه التونسيأقرب لنظيره في النظام المصري منه للنظام الكمالي، فبالنسبة للتعليم التقليدي نجد بورقيبة يقيم الدليل على نفس التحديد ، بل وعلى نفس المرونة ، فقد تجنّب مهاجمة الجامع الكبير (الزيتونة) وجهاً لوجه ، ولكنهمنذ سنتين يحدد بالتدريج دوره ومهامه ويفكر ، كما قيل لي ، في تحويله إلى مجرد كلية لعلم اللاهوت في إطار الجامعة التونسية .

هذه الإصلاحات المختارة كنماذج من بين غيرها تفصح عن نوايا جد مؤكدة لتحويل تونس إلى دولة عصرية ، وجميع الشباب التونسي يصادق في هذه الناحية على عمل الرئيس بل إن أفراداً يجدونه شديد البطء شديدالخجل ،ولكن بورقيبة يفضل هو أيضاً احترام «المراحل» ومع ذلك فمن رأي بعضهم أن « التحضير » (اقتباس الحضارة) لايعني بالضرورة « التغرب » (التحول غربياً) ويقولون : لماذا نرتبط بهذه الشهرة مع الغرب ، ونعلن ذلك بهذا التكرار ؟ ! وهكذا فإن اتجاهاً يتكون حالياً عند بعض المثقفين لفائدة نوع من الإصلاح والحياد على الطريقة المصرية [١] » .

وقد ذكر جوزف شاخث (Scho Cht) في مقالة نشرت له حديثاً تحت عنوان « قضايا الفقه الإسلامي الحديث » هذا الشوط الذي قطعته تونس في مجال التجدد والتغرب وذلكفي صراحةووضوح ، إنهيقول:

« وأخيراً قبلت تونس قانون ١٩٥٦ م وأثبتت أنها في مقدمة البلاد آمنت بتغير الفقه الإسلامي ، فألغيت أولاً الأوقاف العامة ووضعت أملاكها وميزانيتها تحت تصرف الحكومة، وكان هذا القرار أهم بكثير من إلغاء الأوقاف في سوريا ومصر من وجهة النظر القانونية ،والغيت المحاكم الشرعية أقتداءاً بالقانون المصري في السنة الماضية ، ونفذ قانونٌ آخر للأحوال الشخصية بعنوان « مجلة الأحكام الشخصية » (Tunisian Code of Personal Status) وقد زعمت وزارة العدلية

(١) المغرب المسلم ضد اللادينية : لإدريس الكتاني ص ٩٥ ــ ٩٦ .

بتونس أن هذا القانون نال إعجاب كبار رجال القانون الإسلامي ،ومع أن هذا القانون أبقى على بعض القضايا التي هي اسلامية في صميمها مثلا المهر ، وتحريم النكاح على أساس الرضاع، ومع أنها تتفق مع أحد المذهبين الفقهيين المعتمد عليهما في تونس إلا أن القول بأنه صورة القانون الإسلامي في المحاكم الشرعية قديماً مع بعض التغيير والتعديل استناداً الى تأويل بعيد لايصح ، وقد أفتى بعض كبار علماء هذه المحاكم من الطراز الأول ضد هذا القانون ، واستقال أربعة منهم (ومنهم مفتي المذهب المالكي الأكبر ومفتي المذهب الحنفي الأكبر) من المحكمة العليا (Tribunel Superior) احتجاجاً ضد هذا الإجراء ، صحيح أن الجزء الذي يتعلق بقانون المواريث هو على حالته لم يغير فيه مطلقاً ـ ولعل السبب في ذلك أن هذا القانون كان صالحاً للأوضاع الاجتماعية في تونس ومطالبها حتى الآن ـ أما أحكام النكاح والطلاق فإنها مسخت مسخاً شديداً حتى لم يُعرف شكلها الصحيح ، فمثلاً منع تعدد الزوجات واعتباره جناية تستحق عقوبة ، النكاح لايعقد إلا برضا الفريقين ، الطلاق لايقع إلاّ بواسطة المحكمة وذلك في ثلاث نقاط :

أ ـ أن يكون طلب الطلاق على الشروط التي ذكرت في القانون .

ب ـ أن يكون الفريقان متوافقين على الطلاق .

ج ـ أما إذا طلبه فريق واحد فيعين القاضي الغرام الذي يدفعه ذلك الفريق إلى الفريق الآخر .

وهكذا لم تجعل المرأة متساوية بالرجل في الطلاق والزواج أمراً أساسياً

فحسب بل في شئون الملكية أيضاً التي تتبع النكاح، إنه بعيد أن يكون لواضعي هذا القانون اطلاع على أفكار خدابخش، ولكن مما لا شك فيه أن القانون التونسي تأثر بمثل هذه الأفكار والنزعات ومهما زعم أهل الحل والعقد في تونس ، فإن قانونهم الشخصي يختلف عن القانون الإسلامي التقليدي كما يختلف عنه القانون العلماني ... في تركيا ، تماماً ،[١] .

الجزائر :

الجزائر التي دفعت ضريبة الحرية بتضحية مليون نسمة ، وكان السرّ في هذه التضحية والثبات (الذي لا يوجد له نظير في العصر الحديث) حب الشهادة ، والحنين إلى الجهاد . وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبّر عنهم -أي الجزائريين- بكلمة المسلمين فحسب في أخبار معاركهم وكفاحهم ، هذه الجزائر المجاهدة تعاني نفس المشكلة ، وتمر بنفس التجربة التي مرت بها الدول الإسلامية التي يتزعمها قادة التجدد والتغريب في هذه البلاد ، فقد أصبح زعماء الجزائر يسوقون بلادهم نحو مادية اشتراكية علمانية ونحو الحضارة الغربية رغم عاطفة الشعوب الدينية والآمال التي عقدتها العناصر الإسلامية بهم[٢] .

نستطيع أن نتمثل هذه الأوضاع التي تحتجُّ عليها روح الجزائر

---

(١) مقالة شاخت بعنوان Proplems of Modern Islamic Lejislation ترجمة الاستاذ فضل الرحمن الانصاري ملحقاً في مجلة « برهان » ديسمبر ١٩٦٣ .

(٢) نشرت الصحف الانجليزية الصادرة من الهند هذا الخبر في « إبريل ١٩٦٢ م ، أن الأستاذ بكر ممثل الجزائر في الهند صرح في مؤتمر صحفي هناك ، أن الجزائر الحرة ستكون دولة علمانية ديمقراطية ، أما ثقافتها فتكون عربية إسلامية ...

الإسلامية ودماء الشهداء بتصريح من علماء الجزائر وصل إلينا بطريق صحيفة يهودية جويش أوبزرفر (Jewish Observer) الصادرة من لندن .

نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م لمراسلها في الجزائر تحت عنوان « حكم الإسلام لا بد أن يسود » ما يلي ترجمته :

« أعلن القادة المسلمون الدينيون هنا أن « الإسلام واللغة العربية » لا بد أن يسودا الجزائر الجديدة وهاجم علماء الجزائر في بيان لهم القادة القوميين الذين ينادون بدولة جزائرية اشتراكية يعزل الدين فيها عن التدخل في شؤون الدولة .

لقد أعلن بيان العلماء أن الثورة الجزائرية تكون قد خانت شهداءها الذين سقطوا في الميدان وفشلت في رسالتها التاريخية إن لم يكن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ، إن اتفاقية « أفيان » لوقف القتال تنص على أن دستور الجزائر في المستقبل لا بد أن يتضمن حرية الأديان وأن تكون اللغتان العربية والفرنسية هما اللغتين الرسميتين في الدولة ، وأن الدستور سيرسم خطوطه الجمعية العمومية التي كان مفروضاً أن تجتمع يوم ٩ سبتمبر بعد أن تأجل انعقاد جلستها عدة مرات ،ولكن انعقادها حتى بهذا التاريخ قد أجل بسبب التوتر المستمر في العلاقات بين قادة الجيش والقادة السياسيين ، ولكن هاهم العلماء جزائريون الآن ، ولأول مرة ، في تصريح عام لهم ، منذ انتهى الحكم

الفرنسي يعلنون أن الاستقلال والتنمية المادية للاقتصاد ليسا كافيين كي يكونا هما غاية الثورة الجزائرية وذكر بيانهم : « أن لكل أمة مستقلة شخصية، وإلا تشابهت الأمم كالسمك في الماء، الجزائريون والفرنسيون والأسبانيون و... ومعنى ذلك أن نصبح دولة مفتوحة للعالمية الواسعة، نحن نعارض كل هذا.. نحن جزائريون ولنا شخصيتنا الوطنية المستقلة يقضي بذلك ديننا الإسلامي ولغتنا وتقاليدنا وتاريخنا » ووصف بيان العلماء محاولة البعض في فصل الإسلام عن الدولة بأنه « تنكر لمبادىء ثورتنا ، وهجوم على الإسلام في هذه الأمة المسلمة ، وانتهاك لحرمة هذا الشعب كله[1] » .

إن هذه الدول العربية المستقلة وزعماءها القوميين لا يزالون يبدون رغبتهم في الإسلام وصلتهم به بين حين وآخر ، إنهم لا يجهلون أن الإسلام لا يزال رابطة وحيدة قوية بينهم وبين الشعب ، وإنهم لا يستطيعون أن يحكموا الملايين إلا باسمه ولافتته، ولكن مفهوم الإسلام عندهم يختلف كلياً عن ذلك المفهوم الذي يحمله المسلمون المتمسكون بدينهم ، إنهم يريدون بالإسلام ديناً مر بمرحلة الإصلاح والتطوير (Reformed) يتلاءم مع الحضارة الغربية وقيمها وأقدارها ، ويصلح لقومياتهم ووطنياتهم ، وينحصر في إطار العقائد والأخلاق فلا يتدخل في وضع الدستور وشؤون الدولة ومصالحها.

وأعتقد أن رأي معلق لبناني الدكتور سالم ليس من المبالغة وتهويل

(١) المسلمون ، العدد التاسع جمادى الأولى ١٣٨٢ اكتوبر ١٩٦٢ م .

الواقع في شيء إذ كتب في صحيفة أمريكية مشهورة (Muslim World) تحت عنوان (Nationalism and Islam) :

« إن القومية قد توافقت مع الإسلام لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الإسلام الذي تبنيه القومية هو ليس الإسلام القديم الجاف، بل إنه إسلام عصري جديد مرّ بمرحلة التطوير والإصلاح ، موضة عصرية تزيّت بزيّ الإسلام فقط، لا شك أن اسم محمد ﷺ والقرآن تتردد على الألسن ولكن ليكون ذلك مبرّراً لكل ما يعمله القوميون، إن القومية العربية حقّقت كل هذه الانتصارات بتمسكها بالإسلام، وتستطيع أن تقول إلى حد كبير أن القومية العربية لا تدخر وسعاً في استغلال الإسلام استغلالاً كاملاً لتكوين أمة عربية جديدة، إن الزعماء القوميين يحققون انتصاراً باهراً بهذا المزج بين القومية والإسلامية[١] ».

عملية هدم وإزالة أنقاض :

وهكذا تنقل شجرة الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، التي ساهم في نشأتها وسموقها مناخ خاص ، وسقي خاص ، وغذاء خاص ، وقد توفرت هذه العوامل كلها في الأراضي الأوربية ،.. تنقل هذه الشجرة - بعدما كبرت وترعرعت - إلى الأرض الإسلامية، فتغرس فيها وتنصب بقوة، ويهيأ لها الجو، وتحفر لها الأرض حفراً عميقاً، ويقوم الحريصون على نصبها في البلد الإسلامي بعملية الهدم الواسعة وإزالة الانقاض الفكرية

(١) مقاله (Nationalism and Islam) في مجلة (Muslim world) عدد اكتوبر ١٩٦٢ م .

والاجتماعية ـ كما يسمونها ـ من حولها، وتستغرق هذه العملية الهدامة جهوداً وطاقات وأوقاتاً كانت تعود على الأُمة وعلى البلاد بنفع كبير، لو وجهت إلى عملية إيجابية بنّاءة، وإلى إثارة القوى الكامنة في نفوس رجال هذا الشعب الإسلامي عن طريق الإيمان والدعوة الدينية، والإصلاح الخلقي.

رجعية المتقدمين

وقد يلجأ هؤلاء المتجددون في سبيل التجديد إلى بعض الفلسفات والنظم والروابط، التي فقدت قيمتها ومكانتها في المجتمع الأوربي من زمان، وأصبحت تعتبر من الشعارات الرجعية ومن التجارب القديمة التي لجأ إليها القادة في أوربا في ظروف خاصة، وفي وقت محدود، ثم استغنوا عنها بما رأوا من أضرارها وجناياتها وتركوها إلى فلسفة أو فكرة أفضل منها وأوسع، وخير مثال لذلك «القومية» التي تخلت عنها أوربا تقريباً ويعض عليها بعض القيادات في الشرق الإسلامي بالنواجذ. وترى فيها الاسلوب الأخير من التفكير، وآخر ما وصل إليه العقل البشري من وسائل التنظيم والتخطيط مع أنها من بقايا عصر البداوة والحياة القبلية المحدودة في صورة موسعة، وطمر بالٍ خلعه الأوربيون، ومن العوامل الهدامة التي فرقت المجتمع البشري ووزعت الجيل الإنساني على نفسه.

قد بدأ مفكرو الشرق والغرب الأحرار ينظرون إلى القومية نظرة احتقار وازدراء ويعتبرونها موضة قديمة ودليلاً على الرجعيّة والتزمّت

وعنصراً هداماً للإنسانيةوالسلام العالمي،ويدعون إلى الوحدةالإنسانية وفكرة الأسرة العالمية ، ونقدم هنا ـ كدرس وعبرة ـ رأي مفكرين عظيمين ، أحدهما ينتمي إلى الغرب والآخر ينتمي إلى الشرق، الأول هو المؤرخ الشهير ارنلد توئنبي Arnold Toynbee والثاني الدكتور رادها كرشنان رئيس الجمهورية الهندية .

إن ارنلد توئنبي يكتب في إحدى مقالاته :

« إن مستقبل الإنسانيـة يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين ، وهو الشيء الذي يحتاج إليه النوع الإنساني في هـــذا الوقت ، الشيوعيةتزعم أنها تستطيعأن توحد النوع البشري كما أن الإسلاميثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان في افريقيا ، المسيحية أيضاً تستطيع أن تلعب هـذا الدور إذا عمِلت بمبادئها ، ولكن القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية ، بل انهـا توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل،وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانيةفيركامها.

إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين في عصر الذرة ، واننـا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي لنا أن نحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء ونتعلم كيف نعيش كأُسرة واحدة[١] ».

ونادى الدكتور رادها كرشنان بتبني فكرة « الأسرة الواحدة على وجه الأرض » حتى يسلم العالم من عواقب « القومية العسكرية » وقـد قال في خطبته التي ألقاها في ١٠يونيو ١٩٦٣م في مؤسسة الأمم المتحدة:

Islamic Review March 1961 (١)

« إن تقاصر الإنسان عن إلغاء التجارب النووية لا يدل إلاّ على نظرة خاطئة كبيرة ، التاريخ يشهد أن الاستيلاء السياسي ، والتمييز العنصري والاستغلال الاقتصادي دفع الإنسان إلى نار الحرب ، فإذا قضي على هذا الاستيلاء السياسي والاستغلال الاقتصادي بإدخال الرخاء ، والقضاء على النّعرة الجنسية يكون ذلك خدمة كبيرة للسلام العالمي .

إن الوطنية ليست المثل الأعلى للإنسان ، بل إن مثله هو فكرة الأسرة العالمية الواحدة ، إننا نعيش في عالم حديث ولكن أفكارنا قديمة عتيقة[١] » .

تقليد دعاة التجديد :

إن هذه المحاولة المخلصة الملحفة لتطبيق تجارب الحياة الأوربية في بلد إسلامي يبرهن على أن قادة هذه البلاد ـ وإن دوت أسماؤهم في العالم وقادوا الجماهير الكثيرة ـ لا يزالون ـ رغم ثقافتهم العصرية الواسعة ـ في دور الطفولة العقلية التي يكثر فيها التقليد والمحاكاة والتلمذة المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتكار وعن القدرة على الإنتاج الأصيل والإبداع ، وعن التفكير الحر ، وإنهم فضلاً عن جهلهم أو تجاهلهم لطبيعة الشعوب التي يحكمونها ، ولمواهبها وطاقاتها لا يسايرون الفكر الأوربي في تقدمه وأطواره ، ولا يعرفون ما يجيش به المجتمع الأوربي من قلق وتذمر ، وبحث عن الإيمان والروحانية .

---

(١) « National Herald » Lucknow (India)

إسراف الدول الإسلامية المتخلفة :

الحالة الاقتصادية في الدول المسلمة سيئة بوجه عام ، إنها مفتقرة الى الدول الأخرى وعالة عليها حتى في حاجات الحياة ، وإن مستوى حياة شعوبها منحط خافض بوجه خاص ، أما البلاد التي عدد سكانها هائل فإن مستوى معيشتها وحالتها الاقتصادية أحط بكثير مما عليه البلاد الأخرى ، ولكن حكومات هذه البلاد تحاول تقليد الدول الغربية المتحضرة الغنية ولا تدخر في ذلك وسعاً ، وتعتبر إنشاء القنصليات والسفارات في جميع البلاد فريضة لازمة ، وتتخذ هذه السفارات كل الأساليب التي تتخذها السفارات الغربية التي لا دين لها ولا حشمة ولا حدود خلقية ، ان هذه السفارات المسلمة والعربية تقيم مآدب فاخرة وحفلات الكوكتيل Cocktail Parties وتصب فيها أموال الفقراء والطبقة الوسطى كالماء الجاري ، وتقدم الخمر في عامة الأحوال ، ولحم الخنزير أيضاً في بعض الأحيان وبعض المناسبات ، ان هذه السفارات لا تتحمس مطلقاً لدعوة الإسلام ، والتمسك بمبادئه الخلقية التي تنتمي اليها ، ولا تكون لها صلة ما بالمسلمين في تلك البلاد وعناية بتوجيههم وتشجيعهم والاطلاع على أحوالهم وأوضاعهم ، ولا تفيدهم ثقافياً وأدبياً الاّ نادراً .

ان كثيراً من زعماء الدول المسلمة (ومنهم من آمنوا بالديمقراطية والاشتراكية كمبدأ ودستور) يعيشون عيشة باذخة مبذرة ، نفقاتهم ملوكية وجولاتهم تذكر بعهد كسرى وقيصر وامبراطور روسيا في

العهد الأخير ، وحيـاتهم المنزلية ومناهج عيشهم تشبه قصص الف ليلة وليلة ، والإنسان يـكاد لا يصدق أن هؤلاء هم زعماء البلاد الإسلامية المتخلفـة ، والشعوب المتأخرة الفقيرة ، والدعاة الى الاشتراكية والديمقراطية والشعبية .

نقدم بهذه المناسبة الدكتور سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا[١] كنموذج لهذا النوع من القادة والزعماء،ونضرب مثالاً لأسلوب حياته، ومستوى معيشته ، تقول جريدة الصندي تلغراف الصادرة من لندن في أحد أعدادها :

« الرئيس الأندونيسي سوكارنو أنفق خلال اقامته في طوكيو خمسة آلاف جنيه يومياً وكان يرافقه ستّـة ضباط ، وكانت المومسات والبغايا والفتيات الأخرى يجلبن إلى فندقه الذي كان يكلفه ٥٥ جنيهاً يومياً ، وكان ٥٠ من الحراس منزعجين لكثرة تردد المومسات والبغايا الزائرات في هذا الفندق » .

كما أن مكتب وزارة الخارجيةباليابان لا ينظر بعين الرضا إلى هذه الجولات التي يقوم بها الرئيس سوكارنو بين حين وآخر لطوكـيو ، ولكن لما أن اليابان تريد استغلال الوسائل الطبيعية في اندونيسيا فإنها لا تبدي استنكارها لهذه الجولات بطريق علنية[٢] .

---

(١) اندونيسيا بلد متخلف فقير بعدد سكانه الهائل وقد صرح نائب الحاكم العام بجاوا أن مليون نسمة تقريباً في جاوا الوسطى تعاني الفاقة والفقر والجدب ، وقال أن هناك ١٢ ألفاً من الناس يأخذون التلقيحات الغذائية في المستشفيات الحكومية .

(٢) Sunday Telegraph 21 ,Januory 1964

صراع بين الحكومات والشعوب :

إنهم في بلاء وشقاء من هذه الشعوب التي لا يسهل عليها التخلي من المبادىء الدينية ، ومن ثروتها الإيمانية ومن تراثها الغني ،والانقطاع عن منابع الحياة والقوة التي تكمن في مصادرها الدينية ، وأدبها الإسلامي، وتاريخ الإصلاح والتجديد ، فهم في عملية هدم واسعة الأكناف،طويلة المدى ، محاربة من جهات كثيرة ، والشعوب الإسلامية ــ التي وقعت تحت حكمهم وقيادتهم ــ في بلاء وشقاء من هؤلاء القادة ، فهم يحاربون طبيعتها ويقودونها بهتافات وشعارات لا تسيغها هذه الشعوب ولا تنشط لها ، ولا تستطيع أن تحبب إليها الموت والفداء ، وتهون عليها بذل النفوس والأموال والهجرة من الأوطان ، وتتغلب على الشهوات والأنانيةالفردية،وقد عرف هؤلاء القادةضعف هذه الهتافات والشعارات في إثارة الحمية ، وإشعال الحماسة في نفوس الجماهير فهم يلجؤون دائماً أيام الجد والمعارك الدموية الحاسمة إلى الهتافات الدينية والشعارات القديمة من الجهاد في سبيل الإسلام والشهادة في سبيل الله حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وتسلموا مفاتيح البلاد،عادوا إلى هتافاتهم،وشعاراتهم القومية والزمنية ، ويفترضون أنهم يحكمون شعوباً ليست لها ديانة تحبها وتقدسها وتستميت في سبيلها ، وليست لها عاطفة دينية تحتاج إلى التربية والاستثمار .

إهمال طاقات وكنوز مخبوءة :

وهكذا تضيع طاقات هذه الشعوب ومواهبها ، وإمكانياتها التي

لو استثمرت وقدرت حق التقدير، وكان القادة « واقعيين » أكثرمنهم « خياليين » لفعلت الأعاجيب ، وكانت قوة يحسب لها الحساب الكبير في ميزان القوى وفي ميزان « المعسكرات » ولا سبب في ذلك إلا ضيق تفكير هؤلاء القادة ، وتقليد هذه الحضارة ، والتصميم على تطبيقها في بلدهم بحذافيرها ، وهذا بتأثير الثقافة الأجنبية التي تلقوها في الخارج، أو خضعوا لها وهضموها في داخل بلادهم .

تقليد الحضارة الغربية ونتائجه :

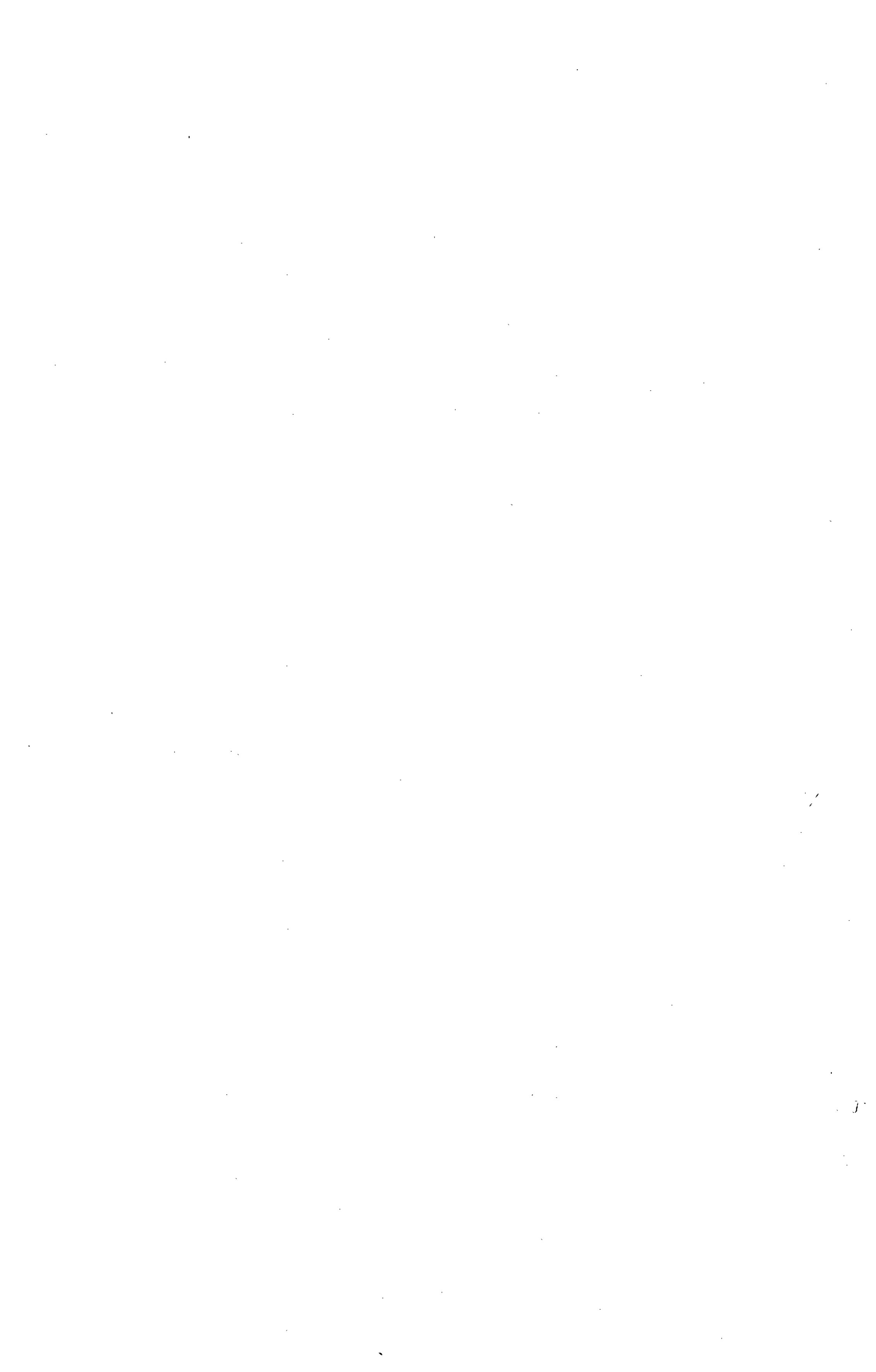
إن اتباع أساليب الحضارة الغربية في الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادىء حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى، ان أوربا اليوم مصابة بالجذام الخلقي ، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً ، وسبب هذا الجذام هو الاباحية الجنسية والخلقيةالتي تسود أوربا اليوم ، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية[١] ، والسبب الحقيقي لهذه البهيمية والحيوانية هي حرية المرأة المطلقة ، التبرج المطلق ، الاختلاط الذي لا حد له ولا نهاية ، وإدمان الخمر ، فأي بلد إسلامي سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه،وشجع التعليم المختلط كانت نتيجة ذلك التفسخ الخلقي والجنسي، والثورة على سائر الحدود ، الخلقية ، والدينية ، وفي عبارة وجيزة ،

---

(١) وقد رأينا بعض ملامحها في فضيحة بروفومو (Profumo) المشهورة بلندن التي رفع الستار عنها لاسباب سياسية .

الجذام الخلقي الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي أصيب به الغرب ، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوربية ورفع الحجاب ، وشاع فيها الاختلاط ، وظلت الصحافة والسينما والتلفزيون والعلوم والآداب ، وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها ، بل تقودها وتوجهها .

سنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلاً .



أسباب «التجدّد» والتغريب
وَعلاجها



وبعـــدما ذكرنا في الفصول السابقة تاريخاً مجملاً لحركة التجديد والتغريب في العالم الإسلامي التي قادها كمال أتاتورك (١٩٢٤ ـ ١٩٣٨ م) وعرف القراء أن قادة الدول المسلمة التي نالت استقلالها حديثاً ومؤسسي الحكومات المسلمة الوليدة ، إما موافقون عليها تماماً أو خاضعون لها في قليل أو كثير ، كما أن الطبقة المثقفة بالثقافة العالية في كل بلاد العالم الإسلامي تتجه نحو الأساليب التي اتخذها كمال في النهضة والاصلاح، ونحو « التجدد » والتغريب .

يجب أن نفكر في أسباب هذا التأثير العميق الذي تركه مصطفى كمال في قلوب هذه الطبقة ، هل هي مصادفة من مصادفات التاريخ ، أو هي نتيجة شخصية كمال القوية ؟ أو أن هناك أسباباً أخرى أكثر قوة وأشد نفوذاً تجعل كل من ينهض للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفي آثاره في ذلك ويقلده في النهضة بالبلاد وتقويتها ، ويعتقـد أن سر النهضة إنما هو التجدد والتغريب ، ليس غير .

إننــا نرى لذلك أسباباً هي في نفوذها عميقة الجذور ، وهي تكاد تكون شائعة منتشرة في الأقطار الإسلامية ، نستعرضها واحداً واحداً بالإجمال ونبحث فيها باختصار .

نظام التعليم الغربي :

لا يخفى على المطّـلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي له روح وضمير ، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد

واضعيه ونفسيتهم ، وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة ، وروحاً وضميراً بذاتها ، إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً ، إنها تسري في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح ، وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها، وإنما يتيسّر ذلك لرجل أُوتي من قوة الاجتهاد وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار ، فيكون عاملاً بمبدأ « خذ ما صفا ودع ما كدر » ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية التطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في الأدب والفلسفة والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أُمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوباً خاصاً للحياة، وتاريخاً مستقلاً ـ لا يعد من أنقاض الماضي وإنما هو منارة نور للأجيال القادمة ـ وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأُسوة الحسنة التي تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الإنسانية ، إذا كانت أُمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأُمة تختلف في الأساس والقيمة والمعيار يحدث هنالك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أي مرحلة من مراحل حياتها يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر ، وفي مثل هذه الحال يجب أن

يحدث هنـاك نزاع عقلي ، وتزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبيعي يجب أن يحدث كأمور طبعية ، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات الفرعيـة والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليـه ، كما أن الشجرة إذا نشأت وتربت وفق نظامها الطبيعي تؤتي أُكلها وتثمر في موعدها ، أما الإنسان فبإمكانه أن لا يغرس شجرة ، ولا يسهر عليها بالتعاهـد والسقي ، أو يعضدها إذا اكتملت وشبت،ولكن ليس بإمكانه أن يقوم في وجه شجرة مثمرة خضراء أو يفرض عليها أن تثمر ثمر شجر آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي،فإنه يحمل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه ، وهو نتيجة التقدم الطبعي لآلاف السنين ، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا ما طبق هـذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة والردة الفكرية، وأخيراً الى الردة الدينية ، وذلك طبعي لكل من يستهدف لذلك (إلاّ من عصم ربّـك) وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين[1] الذي رزق قلباً سليماً وله خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق :

---

(١) هو محمد أسد (Leopold Weiss) سابقاً .

« لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية ـ وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ـ لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو أن ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين « المتنورين » الذين نشؤوا على أسس غربية ! »[1] .

ثم يقول وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية وتأثيرها في عقلية النشء الإسلامي:

« إن تعليم الأدب الأوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود الى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة، ومثل هذا ـ ولكن الى حد أبعد ـ يصدق على التعليل الأوربي للتاريخ العام ، اذ لا يزال الموقف القديم فيه : « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم ان لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٣ .

يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء الى هذا العالم، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوربيين الى السيطرة والى القوة المادية »[١] .

ويتكلم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي فيقول .

« أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوربية فإنما هو شعور هـــذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة، وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل ، وهكذا يتربون تربيــة منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم إلاّ اذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية » .

وأخيراً يقول بكل حماس وصراحة :

« واذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لايستطيعون أن ينتظروا اصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، ان كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لايوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ، اذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنــا ، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحيــاة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين الى

---

(١) أيضاً ص ٧٣ .

الأخذ بوجهة النظر الغربية ، ان تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً الى تقبل الميل العقلي المصاقب لذلك[١] » .

وقد تكهن بهذه النتيجة بعض مفكري الغرب الذين كانوا مسئولين عن تطبيق هذا النظام التعليمي في بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الانجليزي المعروف اللورد ميكالي (Lord Macaulav) في تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥ م) التي قررت جعل اللغة الإنجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلاً من اللغات الشرقية الأخرى إنه يقول :

« يجب أن ننشيء جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم ، وانجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير »[٢] .

ويقرر المستشرق الكبير « جب » (Gibb) في كتابه « وجهة الإسلام » (Wither Islam) أن التجدد والتفرنج في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومـدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الإسلامي الشرقي ، يقول :

« والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٣ .
(٢) تاريخ التعليم لمؤلفه ميجر باسو ص ٨٠ .

الغربي .. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التي مرّ بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين »[١]

يلاحظ جب أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين ـ من غير وعي منهم ـ أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار »[٢] .

لقد كان نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه،وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال والفتك بها إلى هذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات ، وقد عبر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الإسلامي « أكبر » الإله آبادي في أسلوبه الطريف الخاص ، انه يقول في بيته السائر :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب في بيت آخر يقول :

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٢٠٢ .
(٢) أيضاً ص ٢٠٤ .

« إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربي يغير طبيعته وقلبه » ، وجاء إقبال بعده بعدة سنوات وقد اكتوى بنار نظام التعليم الغربي شخصياً وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته في أسلوب أكثر عمقاً وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول :

« إياك وأن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها[١] » .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكوّنها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب[٢] » .

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق كما يقول :

« إن نظام التعليم الغربي ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة[٣] » .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربي فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاؤوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقة بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم

---

(١) أرمغان حجاز

(٢) ضرب كليم .

(٣) أيضاً ص ٨٥ .

الغربي والفلسفة الغربيـة في قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة وفهم السلف تماماً،ولكن الذي لا مرية فيه أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب كما انصهر آلاف من معاصريه ،وحق له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه :

« كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبّة وأفلتُّ من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم فقد خضت في هـذه النار واثقاً بنفسي وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي »[1] .

أما شهادة الزعيم الإسلامي الهندي مولانا محمد علي عن التعليم الحديث وأثره فتحمل قيمةً لا تنكر ، وقد تربى في بيئة مؤمنة دينيـة ثم بدأ دراسته في أكبر مراكز التعليم الغربي « الجامعة الإسلامية في عليكره » في الهند ، إنه يقول في ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الديني الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عملياً في ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقيـة إلاّ ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الانجليزية أو الكتب الدراسية المؤلفة بلغات الشرق .

كما أن نظرية التعليم التي وضعتها الحكومـة للشباب الهندي كانت

(١) أرمغان حجاز ص ٧٠ .

« حديثة » وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة إلى أن يتربى في الطالب شعور خاطىء بعلمه وكبريائه ، يقضي على قداسة الرواية والحجة والاسناد بأوهامه التي يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، ومما لا شك فيه أن هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسايرته للزمان ، غير أنه كان هداماً في حملته على الديانة والأخلاق، أما ما أعطاه بدلاً مما قضى عليه من « الأوهام الدينية » (كما يقول الغربيون) فلا يقوم أيضاً إلا على أساس من الأوهام والعقائد الخرافية، ولكن هذه الثقافة التي يتزود بها الطالب كانت حديثة لا شك[1] » .

إن مؤلف « الإسلام في التاريخ الحديث » (W: C : Smith) الذي يحمل معلومات جديدة حول نزعات العالم الإسلامي وطبقاته المختلفة يعترف بالتأثير العقلي العميق الذي يتر ..ه التعليم الغربي الحديث ومراكزه في العالم الإسلامي، إنه يقول وهو يتحدث عن حركة التنور والتسامح في العالم الإسلامي (Liberalism) :

« إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوربا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، وهكذا شأن نهضة أوربا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوربا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوربا بعدد

(١) Myi life . A . Fragment . P . 23 - 24 .

لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي ، وقد حازت، قصب السبق في هـذا المضمار تلك المعاهـد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث،وكان مما صدّره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان والاتجاهات العقلية الدقيقـة الفجة والميول الحديثـة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث،ويفوقهافي ذلك تأثير معاهد الغريب الحقوقيةوالسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط إجباراً ، ومـا يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ،إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياًوبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين[١] » .

لقـد جرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الإسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغيّـر عقليتهم إلى حـد أن عقولهم أصبحت لا تستطيـع أن تسيـغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الإسلامي أيضاً ويصبحون جزءاً منه ، ويشير إلى ذلك « إقبال » بقوله :

« إن سحر الافرنج أو فنّـه أذاب الصخور وأسالها ماءاً » .

---

(١) المصدر المذكور ص ٦٤ .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة ، والاعتقاد بأن الدين عائق في سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام في صف ممثلي الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة في العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حق الإسهام في جميع أمور الحياة في كفاحها والخروج مع الرجل متكاتفة متساوية ، وجعل الحجاب ـ في أي شكل كان ـ تذكاراً لنظام الحرم القديم في الشرق وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة أولى نحو الإصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين في العصور المتوسطة ونتيجة طبيعية للمجتمع البدائي المحدود الذي وجد في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وإدخال التغيير والإصلاحات في ذلك المجتمع وصوغه في قالب المجتمع الغربي بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه، فريضة الساعة وواجب الوقت، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر، وعن العلاقات الجنسية المنطلقة ، والإيمان بالقومية والاندفاع نحو إحياء الحضارات القديمة واللغات العتيقة ، والإيمان بأهمية الخط اللاطيني وفوائده ، كل هذه النزعات والاتجاهات وما أشبهها التي تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف ، وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم ، كل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية وجوه العلمي والعقلي وتراثه التاريخي ليس غير .

إن القادة وولاة الحكم في البلاد المسلمة ، كلهم إنتـاج نظام التعليم الغربي ووليد حضارته ، أما الذين لم يتح لهم أن يتثقفوا في بلد أوربي وينشؤوا في بيئته فإنهم تعلموا في مراكز هذا التعليم في بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إن بعضهم تخرجوا من الكليات الحربية التي يعنى فيها بالتعليم الغربي والتربية الغربية عناية فائقة .

وذلك هو السِـرُّ في أن العالم الإسلامي اليوم يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائماً ، وهذا الصراع ينتهي في أغلب الأحوال بانتصار فئة هي أكثر قوة وأكثر تسلحاً ، إنه صراع طبيعي ، وهو إن استحق الأسف فلا يستحق الاستغراب أبـداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ هذا الصراع ولم توجد هذه النزعة إلى التجدد و « التغريب » .

حل المشكلة :

وحل هذه المشكلة ـ مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديـداً ويلائم بعقائد الأُمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية وتعبد الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلها ، فمن اللغة والأدب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة لا تسيطر إلا روح واحدة ، يقصى استيلاء الغرب العقلي ويكفر بإمامته وسيادته ،

وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة[١] ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعة وحريـــة وتعتبر كمواد خامة (Raw material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ولو كانت في طريقه عقبات وعراقيل ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حلّ وحيد للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التي تتحدى الكيان الفكري للإسلام وجهازه الاجتماعي ،وظلت تهدد حياته وبقاءه، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها وإخلاصها ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجـــدد والتغرب ، وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة المتحمسة الصامتة قطعاناً من الغنم يحكم في رقابها هؤلاء القادة والولاة وتساق إلى أي هدف في صمت وهدوء .

لقد كان السر في نجاح الحكم الانجليزي في الهند واستمراره طبقة الضباط والموظفين الكبار والحكام الذين ربوا تربيـة غربية خالصة

---

(١) إن كتاب « القرآن والعلم الحديث » للدكتور رفيع الدين نموذج لهذا الأسلوب ، كما توجد هذه الدراسة الجريئة والنقد الحر في كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » للاستاذ محمد اسد ، وكتاب « تنقيحات » بالأردية و « الحجـــاب » للاستاذ أبي الأعلى المودودي . و « العدالة الاجتماعية في الاسلام » لسيد قطب .

ونشأوا على الطاعة والنظام ، إنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مائة سنة حسب رغبة ولاتهم الأجانب وفكرتهم وثقافتهم ؛ فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الإسلامية والعودة بها إلى الحياة الإسلامية أن يهتم بتعليم هذه الطبقـة الإسلام وتربيتها على أسس الإسلام ، فإنها الطبقة التي تتحكم في البـــلاد ، وأن نصلح نظام التعليم الذي يخرج هؤلاء الأشخاص !

هـذا التغيير الجذري لنظام التعليم وتكوينه الإسلامي أمر لا غنى عنه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ويحتاج إلى مواهب ومؤهلات عظيمة ووسائل كثيرة .

إن أمر الجيل الجديد غير قابل للتأخير ولا ليوم واحد ، وقبل أن يتحقق هذا النظام وينقلب منهاج التدريس رأساً على عقب نستطيـع أن نؤثر في عقول الشباب وأبناء الجامعات بإنشاء دور إقامة إسلامية (Muslim Hostels) يقيم فيهـا الطلبة المسلمون ، ويهتم فيها بغذائهم الروحي والفكري ، وتربيتهم الإسلامية ، إن دور مساكن الطلبة وتأثيرهـا على حياتهم وسيرتهم ، وميولهم ونزعاتهم ظاهر جلي للذين جربوا هذا الجيل الجديد وعرفوه عن كثب .

إن الكليات الاسلامية العصرية (التي نالت من عناية الأُمة وأموالها قسطاً كبيراً) قد فقدت حيويتهـا ونشاطهـا في أغلب الأحوال لتغير الأوضاع ، أما تأسيس دور الاقامة (Boarding Houses) للشباب المسلم

المتعلم في الجامعات فإنه لا يحتاج إلى عناء كبير ، وفيها فوائد كثيرة ، وفي البلاد التي أفلت فيها زمام التعليم عن يد القادة والزعماء تستطيع هذه المساكن أن تهيء الجو الصالح لصيانة الشباب الخلقية وتربيتهم الدينية والفكرية ، وبإمكانها أن تنقذ عدداً كبيراً من النفوس البريئة السعيدة من هذه البيئة الموبوءة المفسدة ، وسموم معاهد التعليم وأضرارها[١] .

إن إنشاء أروقة للطلاب ليست حاجة البلاد الإسلامية فحسب بل هي حاجة البلاد الغربية التي يؤمها الشباب المسلم الذين هم عصارة الأمة وزبدتها في الذكاء والحيوية والنشاط ، والذين قدرت لهم قيادة البلاد الإسلامية أو المناصب الهامة فيها لأجل مواهبهم الفكرية واطلاعهم على العلوم الغربية وسياستها واتصالهم بها ، فإذا قمنا ببعض الواجب في إصلاح هذه النزعات وتغيير تلك التيارات وتكوين الفكر الإسلامي في هذه المراكز والحصون العلمية ونجحنا في إعادة ثقتهم بالإسلام ومستقبله ، استطعنا ـ بفضل الله وحوله ـ أن نحدث بهذا العمل الصامت ـ عاجلاً أو آجلاً ـ ثورة صامتة في البلاد الإسلامية ، التي يقودها هؤلاء الشباب .

إن هذه الطريق أسلم الطرق والأساليب والتجارب التي تمرّ بها هذه البلاد الإسلامية اليوم مباشرة .

---

(١) إن أول من دعا إلى هذه الفكرة هو الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وتزعم حركتها ولواءها اليوم الأستاذ الكبير عبد الباري الندوي الذي لا يزال يكتب ويؤلف ويلفت إلى ذلك أنظار المسلمين .

المستشرقون ونفوذهم في ميدان التفكير :

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، ويملكون إعجاب الأوساط العلميـة في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث الإسلامية في الشرق وزن كبير أثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه – ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب – شبهات حول الإسلام ونبيّ الإسلام والمصادر الإسلامية ، وأحدثوا في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهم سهواً كبيراً في الحث على نعرة « إصلاح الديانة » و « إصلاح القانون الإسلامي » .

إن تأريخ هذا الاستشراق قديم يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بالوضوح ، والعوامل التي كونت هذا التاريخ إنما هي دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الديني فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليهـا ، ولذلك نرى أن الاستشراق و « التبشير » يسيران معاً في أغلب الأحوال ، وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعدد كبير منهم يهود ديانة وجنساً .

والعامل السياسي هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول

الغربية في الشرق ، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمي ، وكانوا مصادر مؤكدة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب أن يبسط نفوذه وسلطته في الشرق .

وزد إلى ذلك ما يقوم بـه هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التي تسبب للدول الغربية صداعـاً وعرقلة ، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لا تكاد تخطر فيـه معارضة ، بل تحدث هالة من التقديس والاجلال حول حضارتهم ، حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم ينبعث فيهم دافع الاقتداء والتقليد الذي يحملهم على الاقتفاء بآثارهم في سبيل إصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقـد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعوراً كاملاً وساعدهم زعماؤها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هـذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الإسلامي ، ينشرون فيهـا مقالات تحليلية ومواد تحقيقية تبحث عن مشكلات العالم الإسلامي وميوله ونزعاته ، ولا تزال تصدر مجلة «الشرق الأوسط» (Journal of Near East) ومجلة «العالم الإسلامي»

(The Muslim World) من أمريكا ، ومجلة (Lemond Musalmans) من فرنسا .

كما أن هناك عاملاً اقتصادياً للإستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوربا وآسيا، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار ، كثيرة الذيوع ، وهي لا شك وسيلة لتجارة رابحة وكسب أموال خطيرة .

غير أن عدداً من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والإسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم ويبذلون فيه جهوداً ضخمة،يكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة ، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم ، وقرت بها عيون العلماء في الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنع الكاتب شيء من أن يصرح أن طائفة المستشرقين هي التي لم يرافقها التوفيق الإلهي في غالب الأحيان على ما درسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبوية والفقه الإسلامي والأخلاق والتصوف ، وغاصت في أحشائها ولكنها خرجت

صفرة اليد لا حظ لها من الإيمان واليقين، بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه العلوم لما أضمرته في قلبها من عداوة للإسلام وبعد عن الحق وأكبر سبب لذلك هو أن ثمرة الأعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والمعلوم أن غاية هولاء المستشرقين بوجه عام إنما هي البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فلا يرون في مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتشي النظافة في كل مكان .

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدوداً إلى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام، ولكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهذه القضية هي أن المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في تشويه صورة الإسلام .

ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات – من كل رطب ويابس – ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلاّ في نفوسهم وأذهانهم .

إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كي يخشع القارىء أمام سعة قلبهم وسماحتهم ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخها ،وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن إلانتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي ، فينكر القارىء أي اتصال بمصدر غير مادي ولا يعترف لهما بقداسة وعظمة ، وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون في ذلك فلا يزيد من النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارىء ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق في كل موضوع من مواضع الكتاب والسنة والسيرة النبوية، والفقه والكلام كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، والمشائخ والصوفية ،ورواة الحديث،وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال، وحُجّية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الإسلامي وتطوره في أسلوب لا يخلو عن التشكيك وإثارة الشبهات ويكفي لزعزعة العقيدة والترغيب عن الإسلام لرجل ذكي ليس له نظر عميق في هذا الموضوع،

ولسنا الآن بصدد استعراض علمي وايضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فإنه لا شك موضوع علمي مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج إلى مجمع علمي منظم .

ويكفي أن نقدم الآن ملخصاً لدعوتهم وتربيتهم ـ بغاية إيجاز ـ التي يعرضونها على قرائهم المثقفين والشباب الناهض مراراً وتكراراً بعناوين مختلفة وتسيغها عقول هؤلاء الشباب كحقيقة بديهية معقولة ، ولما أن هذه الدعوة والتربية لها صلة قريبة بحركات الإصلاح والتجديد في الأقطار الإسلامية ، ولا يمكن فهمها والاطلاع على حقيقتها بدون ذلك نقدم في هذه المناسبة ذلك الملخص مقتطفاً من كتاب العالم المصري الدكتور محمد البهي الذي جمعه في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث » ، يقول :

١ ـ إن المجتمع الإسلامي ، في صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوي إلاّ في فترة قصيرة ، هي الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الإسلامي ، وبدائية هذا المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلاؤم بين الحياة فيه وتعاليم الإسلام ، ثم بعد مضي هذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين ، بين المجتمع والإسلام ، كمصدر توجيه في الحياة ، وكلما تطورت الحياة للمجتمع الإسلامي بفعل العوامل الخارجية ، الثقافية والسياسية ، والاقتصادية ، كلما تخلف الإسلام عن أن يجاري تطور الحياة لهذا المجتمع ، وما زالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة ـ مقر آخر خلافة إسلامية ـ إبعاد الإسلام عن مجال الحياة العامة ،

وتركه في ضمير الفرد مستوراً، لا يعبر عنه الفرد إلاّ لنفسه فقط، وفي غير إعلان أو حماس .

٢ ـ إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الإسلام، تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لم يستطع الإسلام أن يكيفها في ضوء تعاليمه ، ولم يستطع أن يلائم بين تعاليمه وبينها ، والتشدد في تطبيق تعاليم الإسلام معناه إذن : العُزلة في الحيـــاة ، والتخلف في استخدام وسائل الحضارة ، والترحيب بالفقر ، والمرض والجهل ، للسكان المسلمين على نحو ما هو الحال ببلاد المملكة العربية السعودية إذ هي البلد الوحيد بين بلاد الإسلام التي جعلت الحكومة الرسمية تعبيراً عملياً عن الإسلام ، وإذن هي النموذج في تطبيق الإسلام .

٣ ـ إن التطور ، وهو قانون الحياة العام الذي لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم ، ليسايروا العـالم الغربي الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ويجب لهذا أن يتطوروا بالإسلام نفسه كدين .

الجماعة الإسلامية ـ كي تتطور ـ يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ، إذ اتجاهات الغربيين في الفكر ، وفي الحيـاة ، قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، واستخدموا في تكوينها الطريقة «العلمية» وهي الطريقة التي لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة ، مستهدفة خير الإنسانية وحدها .

وقد شعر المستشرقون بعد تجربة طويلة امتدت نحو قرنين أن

الطريقة التي مارسوها في تطوير عقليــة المسلمين وتسييرها وفق المثل الغربية والاتجاهات المـادية لم تنجح حق النجاح ، وعثروا من الخطأ الأساسي الذي سبب لهم بعض الاخفاق وجعل جهودهم لم تثمر كل الأثمار، بل قـد واجهت بعض الأحيان رد فعل عنيف من الأوساط الإسلامية كان خطراً كبيراً من وجهة نظر الدعوة التبشيرية، فما زالوا يستعرضون جهودهم ونتائجهـا وتأثيرها في ضوء التجربة والواقع حتى توصلوا إلى أن يحدثوا في طريقتهم وأساليب دعوتهم تغييراً أساسيـاً ، وذلك بأن يقدموا للإسلام تعبيرات جديدة ويدعوا إلى حركة إصلاح الديانة بدلاً من أن يغيروا عقليــة المسلمين ويقوموا بتطويرها ، وأن تنال جميع حركات التجديد وإصلاح الديانة حيثما وجدت تشجيعاً وتأييداً منهم

ويدل على هذا التغيير في العقلية، والطريقة الجديدة التي ابتكروها العبارة التالية التي نقتطفها من كتاب (Towards Understanding Islam) للكاتب (Harry Gaylord Dorman) يقول :

« يتوقع من المبشرين في الأقطار الإسلامية في ظرف عدة أعوام أن تثمر جهودهم في تجديد الإسلام وتطويره أكثر من تطوير عقلية المسلمين وتغييرهم ، ومما لا شك فيه أن هـذا مجال واسع مفتوح للعمل لا يغفل عنه في أي حال » .

ولو تأملنا قليلاً ظهر أن حملة لواء الاصلاح والتقدم (قادة التجديد والتغريب) الذين نشؤوا في العالم الإسلامي في ظرف نصف قرن مضى، تتجلى في أفكارهم وآرائهم وأساليب حيـاتهم روح هؤلاء المستشرقين

ودعوتهم وتربيتهم،حتى نستطيع القول بأن أفكار المستشرقين إنما هي أساس تفكير هؤلاء القادة ومبدأ عملهم .

إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الإسلام وقيمه العليا في جانب ، وأثبتوا تفوق المثل الغربيـة وعظمتها في جانب آخر ، إنهم فسروا تعاليم الإسلام تفسيراً يضعف قيمة القيم الاسلامية ، ويُضعف علاقـة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياب والشك بالاسلام ، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الاسلام لا يتفقوطبيعةالحياة الحاضرة، وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضياته ، وبينما يقول هؤلاء المستشرقون: إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالنواجذ والرجعية أن يعمل الإنسان بالإسلام – الذي هو دين الله المختار الخالد – في هـذا العصر الراقي المتقدم المتطور بسرعة وفي استمرار ، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة في التاريخ القديم ، وإحياء اللغات البالية التي فقدت كل صلاحيتها للبقاء ، ودفنت تحت أنقاض الماضي السحيق منذ آلاف السنين ، ولم يكن الغرض بمثل هذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الإسلامي وتتمزق وحدة الإسلام،وتواجه الحضارة الإسلامية واللغة العربية ضرراً ، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد ، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم في إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر،والحضارة الآشورية ولغتها في العراق ، والبربرية في أفريقيا الشمالية والفينقية في سواحل فلسطين ولبنان ، ووجد لها دعاة وأتباع .

يقول جب في كتابه (وجهة الإسلام) :

« وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي أندونيسيا وفي العراق وفي إيران ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوربا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها » ـ (ص ٣٤٢) .

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) معلقاً على دعوة الفرعونية في مصر التي نشطت في مصر في أوائل هذا القرن :

واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة «السياسية الأسبوعية» هذا الاتجاه الجديد، فافسحت صدرها لدعايته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في شطر كبير من حياته[1] .

أولئك هم المستشرقون وتلاميذهم الذين بدأوا يقولون بكل قوة :

إن لغة القرآن العربية الفصحى إنما هي لا تساير حاجات العصر ، فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات ، وقد تكررت منهم هذه الدعوة بصورة شائقة جذابة كسبت تأييد المثقفين في مصر وأوقفتهم بجانبها ، وقد عنيت حكومات الاحتلال وبعيدوا النظر من الولاة المستعمرين والمفكرين الغربيين بهذا الموضوع عناية

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١٣٥ .

فائقة، ونشطوا في تحبيب هذه الفكرة وترويجها، وقد كان لهذهالدعوة دوي في مصر في فجر هـــذا القرن أفزع كثيراً من المحبين للإسلام والغيارى على اللغة العربية ، يقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه : « الاتجاهات الوطنية » :

« ثم هاجت المسألة مرة أخرى في أوائل سنة ١٩٠٢ حين ألف أحد قضاة محـكمة الاستئناف الأهلية في مصر من الانجليز ــ وهو القاضي ولمُور ــ كتاباً سمّـاه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد،واقترحاتخاذها لغة للعلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبه النّـاس للكتاب حين أشاد بـــه « المقتطف » في « باب التقريظ والانتقاد » ، فحملت عليه الصحف ، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا إلى محاربة الإسلام في لغته ، وفي ذلك الوقت كتب حافظ قصيدته المشهورة ، التي يقول فيها ، متحدثاً بلسان اللغة العربية[١] :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتيالخ

ويقول في موضع آخر :

« وثارت المسألة من جديد ، حين دعا إنجليزي آخر ، كان مهندساً للري في مصر ـ وهو السير وليم ولكوكس ـ سنة ١٩٢٦ إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية،فترجم الانجيل إلى ما سماه

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ١ : ٢٥٣ .

« اللغة المصرية » . ونوه سلامه موسى بالسير ولكوكس وأيده، فثارت لذلك ثائرة النّاس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة ، والتنديد بما يكمن وراءها من الدوافع السياسية،ولكن الدعوة استطاعت أن تجتذب نفراً من دعاة الجديد في هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستاراً لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يعشي الأبصار، وحين كان النّاس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان في أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن «الفرعونية»،وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية وإلزام النّاس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية في غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة وقد مضوا من بعد في مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة[١] .

ولو نجحت هذه الدعوة لأنتجت توزع اللغة العربية بين لغات شتى، وانقطاع صلة العرب عن القرآن والأدب الإسلامي،وسبب للغة العربية أن تصبح لغة غريبة لهم ، وتفقد مكانتها الدولية ، ويحرم العرب كلهم تراثهم الديني وروحه فيقعوا فريسة الإلحاد والردة والخلافات والاضطرابات بكل سهولة .

كما أنهم دعوا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية ،

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٣٣٦ .

وأثبت تلاميذهم ضرورته من حين لآخر، وجهروا بذكر فوائده وفضله، ووقع ذلك فعلاً في مصر كنانة الإسلام وحصن العربية، يقول الأستاذ محمد محمد حسين :

« تقدم عضو من أبرز أعضاء المجمع العلمي المصري وهو عبد العزيز فهمي – ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري – في سنة ١٩٤٣ باقتراح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات، امتدت خلال ثلاث سنوات، ونشر في الصحف، وأُرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية[٢] » .

والمعلوم أن ذلك لا ينتج إلاّ حرمان الأُمة العربية وجهلها بقراءة القرآن على وجه صحيح، وفقدان التراث العلمي – الذي لا يوجد له نظير في سعته – قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نعرف هدف المستشرقين ومدى أفكارهم ودقة نظرهم في تحقيق غرضهم وعدائهم السافر للإسلام بهذه الاقتراحات والتوصيات الآنفة الذكر، وإن مؤلفات أغلبية هؤلاء المستشرقين تستأصل أُسس الإسلام وتشكك في مصادره بما فيها الفقه والحديث، وتحدث جو الاضطراب الفكري والارتياب في المجتمع الإسلامي، وتبذر في القلوب بذور الشك والريبة في تفقه حملة الإسلام وذكائهم (الفقهاء والمحدثين)

---

(١) أيضاً ص ٣٣٨ .

وقد تحمل مؤلفاتهم من الأخطاء العلمية الفاحشة وسوء الفهم ، وعدم الرسوخ في اللغة وقواعدها ومن التحريف والتذوير ما يدعو إلى الضحك والعجب ، ولكن أكثر مؤلفاتهم نالت قبولاً عاماً في الشرق والغرب ، وأثارت إعجاباً في الطبقة المثقفة الحديثة (وفيها عدد من المثقفين الناضجين) بحسن ترتيبها ، والاستنباط الدقيق للنتائج ، وطريقة عرضها العلمي ، وهي طبقة لا تشفي غليلها مؤلفات علماء الشرق الأقحاح.

ولكي نعرف المكانة التي يحتلها علماء الغرب والثقة التي ينالونها في الشرق يجب أن نعلم أن المجامع العلمية الثلاثة في الشرق الأوسط أعني المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي العراقي في بغداد لكل واحد منها عدد وجيه من الأعضاء المستشرقين الذين يستفاد من آرائهم ودراستهم .

وممّا يدل على ضعف العالم الإسلامي والعربي وفقر وسائلها العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة منذ زمن بعيد، وهي مؤلفات تحتل مكانة « الكتاب المقدس » (Gospel) في موضوعها ، فإن كتاب ر . أ . نكلسن ، (R A. Nicholson) في موضوع تاريخ آداب العرب (A Literary History) وكتاب الدكتور هتي (Dr H.P. Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارل بروكلمان (Carl Brocklemann) في تاريخ الآداب العربية (Ceschichtirder Arabichen Literatur) باللغة

الألمانية وترجمتها إلى الانجليزية باسم (The History of Arb Literature)
وكتاب شاخت (Schacht) في مصادر الفقه الإسلامي باسم :
(The Oregins of Mohammadans Jurisprudence)

كل ذلك مما ينفرد في موضوعه،ويعد مصدراً علمياً له أهميتهوقيمته بجامعات الشرق في قسمها العربي والإسلامي،وعليه أكبر اعتماد المؤلفين في الاقسام الإسلامية في الجامعات .

إن « دائرة المعارف الإسلامية » التي ألفها المستشرقون (ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) وصدرت منها طبعات متعددة في أوربا وأمريكا،تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية ،وأثمن ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم (كمصر وباكستان) أساساً للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأردو .

ولسد تأثير المستشرقين الهدام ، وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية، ويقدموا للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة،ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازة من حيث اصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد المصادر وصحتها ، واستدلالها القوي بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملة لجميع نواحي الاستحسان بعيدة عن الأخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم، وأخطاءهم في فهم النصوص وبيان المعنى، ويبدو للنّاس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها، ويطلعوا على ما يضمرون في نفوسهم من عداء للإسلام وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الإسلام والأُمة الإسلامية يجب إحباطها .

أما بدون الجمع بين هذا العمل الايجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الإسلامية ، وبين العمل السلبي (بالمحاسبة العلمية) فلا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة ، تلك الطبقة التي تعد من أذكى الطبقات في العالم الإسلامي وأكثرها طموحاً ، والتي تدرس في جامعات أوربا وأمريكا الكبرى أو في جامعات بلادها ، وتحب دراسة الإسلام بلغات الغرب التي تتقنها ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة التي ترزخ تحت تأثير أفكار الغرب وعلماءه من تأثيرهم لا تزال تواجه الأقطار الاسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية، والردة الفكرية، ويتبنى حملة لواء التجديد والتغريب ، أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الإسلام على المجتمع وتنفيذه في الحكم، ويشكلون بذلك مجتمعاً يشبه المجتمع الإسلامي القديم في الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك أن يخاطب قادة العالم الإسلامي وعلماؤه بهذا البيت الفارسي الذي معناه ! :

مهلاً أيها الأعرابي فإن الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى تركستان، وأنت تريد الكعبة !

تخلف العلوم الإسلامية وركود الفكر الإسلامي :

ومن العوامل التي أثرت في انسياق الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وقادته ـ الذين بيدهم أزمة الحكم ـ مع الحضارة الغربية وبُعدهم عن الدين وانصرافهم عنه، ذلك الجمود العقلي والركود الفكري الذي يطرأ على مراكز العلوم الإسلامية وعلى علمائها من مدة طويلة، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح ، الصالحة للنمو والازدهار عن إقامة برهان على صلاحيتها التي تتدفق بها ومسايرتها مع الحياة المتطورة ، وذلك في عصر كانت حاجتها إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر .

وقد كان المنهج القديم للدراسات الإسلامية في العصر الماضي يتطور بين حين وآخر يساير الحياة ومطالبها ، ولم تكن هناك ثورات ولا انقلابات إلاّ نادراً ، ولم يكن في وضعها فرق جوهري ، وإنّما كانت تلك الثورات عبارة عن تبادل الشخصيات والأُسر الحاكمة ، ولكن واضعي المنهج التعليمي في ذلك العصر وزعماء الحركات العلمية في العالم الإسلامي آنذاك كانوا يقومون بتعديلات مستمرة في المناهج تشهد بذكائهم واعترافهم بالواقع .

ولما جاء القرن الثامن عشر الميلادي الذي لم تكن فيه انقلابات الأُسر

والشخصيات الحاكمة ، وإنما كانت ثورة حضارية وانقلاباً شاملاً فزالت حضارة وجاءت حضارة أُخرى وذهبت قيم وحلت محلها قيم أُخرى ، وأصاب المنهج الدراسي جمود لم يسمح له التجاوز عن خطه المرسوم ، وأبى كل تعديل أن يقبله ، وظهر إلحاح شديد على البقاء على الخط القديم والأسلوب الذي اختاره المتقدمون في وضع المنهج الدراسي في عصورهم، ومن بينهم الشيخ نظـام الدين اللكهنؤي مؤسس « الدرس النظامي » (م ١١٦١ هـ) في الهند ، وعلماء الأزهر في القرن الثامن عشر في الشرق الأوسط ، فقد أُغلق باب الاجتهاد، ووقف توسيـع نطاق الفقه الإسلامي في القضايا والمشكلات الجديدة التي خلقتها الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة، وبالرغم من أن الاجتهاد بشروطه الضرورية كان فريضة علماء الإسلام ووسيلة لتبليـغ رسالة الإسلام إلى العصر المتطور أصبح مقفل الباب مسدود الطريق ، كما صور ذلك أحد[١] علماء العرب المعاصرين ببلاغة إذ قال : « فبـاب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم بل هو مفقود المفتاح » .

إن أساليب البيان وطرق التعبير الآسرة للقلوب التي كانت خاصة العلوم الإسلامية ومعارف القرآن وشريعته كانت مفقودة أو كادت ، وذلك في عصر تجدد فيه التعبير وأساليب البيان ، كما ندر وجود العلماء النوابغ الذين يستطيعون إقناع الجيل الجديـد بخلود الحقائق الدينية

---

(١) الاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء أستاذ الفقه الإسلامي بجامعة دمشق .

وصلاحية الحياة وتفوق الإسلام ، ويزيحون الستار عن وجه الحضارة الحديثة بنقدهم العلمي المتزن وتحليلهم الدقيق .

الحاجة إلى تدوين الفقه الاسلامي :

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامي في أجزائه المختلفة أنجب شخصيات دينية ممتازة أثارت الإعجاب في بعض أوساط العلم الواسعة بنبوغها وفضلها ، وأنقذت طبقة كبيرة من الردة الفكرية ، كما قام بعض العلماء في بعض الأقطار بخدمة الفقه الإسلامي ومشكلاته في إطارهم الشخصي، وعرضوا الفقه الإسلامي في ثوب قشيب، ولكن العالم الإسلامي تعوزه حركة علمية قوية دولية، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة ، التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الانسانية في كل زمان ومكان، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس.

إنه عمل ضخم يقتضيه الوقت الحاضر، وهو نداء الوقت، وصوت الساعة ، وبذلك نستطيع أن ننقذ العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي المعاصر من الردة الفكرية والاجتماعية ، ونسد تيار التغريب والتجدد الجارف ، الذي يجرف العالم الإسلامي اليوم بكل قوة وشدة وطغيان، ولقد صدق محمد إقبال إذ أبدى أهمية هذا العمل ونتائجه البعيدة المدى ، يقول :

« إنني أومن وأعتقد أن من درس أصول قانون العصر الحاضر ، وأثبت خلود تعاليم القرآن وبقاءها في ضوء دراسته إنما هو مجدد الإسلام في عصره وأكبر خادم للنوع البشري ، والمسلمون في كل قطر إمّا مشغولون بحرب الاستقلال والتحرير أو عاكفون على دراسة القانون الإسلامي ، وبالجملة فإن هذا وقت العمل ، لأن الإسلام كما أعتقد ينقد اليوم على محك العصر الحديث ، ولعل التاريخ الإسلامي لم يشهد فترة مثل ما يشهده اليوم[١] » .

والتدوين الجديد للفقه الإسلامي لا يعني ابتكار قانون جديد يحتاج إلى وضع مبادىء جديدة أو ظهور شيء لا وجود له إلى حيز الوجود، إن الفقه الإسلامي ثروة غالية للقانون ونموذج عال للذكاء الإنساني وجهوده ، يثير الاستغراب ولا يوجد له نظير في ذخائر العالم القانونية، إنه يحتوي على جزء كبير للحياة ومعظم أحوال العصر القديم وظروفه، وليست حاجة اليوم إلا أن تستنبط المسائل الفرعية من أصول الفقه الإسلامي وكلياته التي تنبع من القرآن والسنة ، وذلك لتحقيق مطالب الحياة المتطورة الحاضرة ، وتقديم حلول لمشكلاتها الحديثة .

ولتقدير قيمة الفقه الإسلامي وذخيرته التشريعية نقدم مقتطفاً من مقدمة كتاب « المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية » للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ، أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية في

---

(١) إقبال نامه ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ .

كلية الحقوق بدمشق ، وهو يتحدث حول انطباعات رجال القانون الغربيين نحو التشريع الإسلامي ، في الندوة التي عقدتها شعبة الحقوق الشرقية للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس ، باسم « أسبوع الفقه الإسلامي » .

إنه يقول :

« عقدت شعبة الحقوق الشرقيـة من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم «أسبوع الفقه الاسلامي» برئاسة المسيو (Milliot) أُستاذالتشريع الاسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربيـة وكليات الأزهر ، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهما ، ومن المستشرقين ، واشترك فيه من مصر أربعة أعضاء : اثنان من جامعة فؤاد ، وعميد كلية الحقوق في جامعة ابراهيم،وأحدأعضاء هيئةكبار العلماء عن الأزهر،واشتركت فيه أنا مع الأستاذ الدكتور معروف الدواليبيعن كلية الحقوق السورية.

وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية من الحقوق العامة والخاصة (المدنية والجنائية والاقتصادية) ومن تاريخ التشريـع ، عينها مكتب المجمعالدولي للحقوق المقارنةقبل عامووجهت الدعوةللمحاضرة فيها ، وهي : (١) اثبات الملكية (٢) الاستملاك للمصلحة العامة (٣) المسئولية الجنائية (٤) تأثير المذاهبالاجتهادية بعضها فيبعض

(٥) نظرية الربا في الاسلام ، وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مهمة مـــع المحاضر وبين المؤتمرين تطول وتقصر بحسب الحاجة ، وتسجل خلاصتها .

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء وهو نقيب محاماة سابق في باريس فقال :

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامي ،وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور ،وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء » .

وفي الختام وضع المؤتمرون بالاجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي :

بناء على الفائدة المتحققة من المباحثات التي عرضت أثناء « أسبوع الفقه الاسلامي » وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح :

١ ــ أن مبادىء الفقه الاسلامي لهـا قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها .

٢ ــ وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ،هي مناط الاعجاب ،وبها يتمكن الفقه الاسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

يعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الاسلامي يتابع أعماله سنة فسنة،ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

بارقة الأمل :

ولكن الطبقة المثقفة الجديدة التي تحتل اليوم مركز القيادة لثقافته العصرية وكفاءاته الحديثة تحمل من سلامة التفكير وصلاحية قبول الحق نصيباً غير منقوص بالرغم من علاتها وطبيعتها الخاصة ، بل قد تفوق هذه الطبقة في عزمها وقوة إرادتها واعترافها بالحقيقة بعض الطبقات الأُخرى وتمتاز عنها ، إن أفراد هذه الطبقة عندما يؤمنون بمبدأ يرون من الواجب عليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم في تبليغه ونشره، ويستفرغوا فيه جهودهم وقوتهم إلى آخر مدى ، فيها كثير ممن يحبون الإسلام ويؤمنون به كمبدأ وعقيدة ، وقد منحت هذه الطبقة جماعة المسلمين رجالاً غيارى صائبي الفكرة بعيدي النظر متفانين في خدمة الإسلام ، مجاهدين في سبيله، وكم من حركات إسلامية قامت على أكتاف الأبطال والقادة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة .

وفي الشرق الأوسط لم يظفر السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا بخيرة رجالهم إلاّ من هذه الطبقة ، كما أن

الهند منذ بدء حركة الخلافة إلى الحركات الدينية المعاصرة نالت أفضل رجالها وأقواهم إرادة من هذه الطبقة نفسها ، فإذا قام اليوم دعاة الدين بتبليغ رسالة الإسلام إلى هذه الطبقة بكل إخلاص ونزاهة ، ونجحوا في تثقيف عقليتهم بثقافة الإسلام وإقصاء بذرة الفساد التي بذرتها الثقافة الغربية في عقولهم ونجحوا في إشعال شرارة الإيمان التي لا تزال كامنة تحت الرماد ، نشأ فيها رجال أفذاذ متفانون في حب الإسلام أمثال الشاعر محمد إقبال والزعيم محمد علي ، وسيكون ذلك اكتشافاً مدهشاً وبالتالي ساراً لدعاة الإسلام .

ولتغيير الوضع العالمي وإحداث ثورة على الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي ، يجب على دعاة الدين أن يوجهوا عنايتهم وجهودهم إلى هذه الطبقة ، فلم يبل العالم الإسلامي بالردة الفكرية إلاّ بسوء تفكير هذه الطبقة وانحرافها ، وبذلك اتجه العالم الإسلامي اليوم من الفكر الإسلامي الخالص إلى التفكير الغربي الخالص ، وصار الجمهور بيد القيادة اللادينية كالقطعان من الضأن والغنم ، وعلى إصلاح هذه الطبقة المثقفة يتوقف انصراف الأقطار الإسلامية من التفكير الغربي إلى الفكر الإسلامي الصحيح.

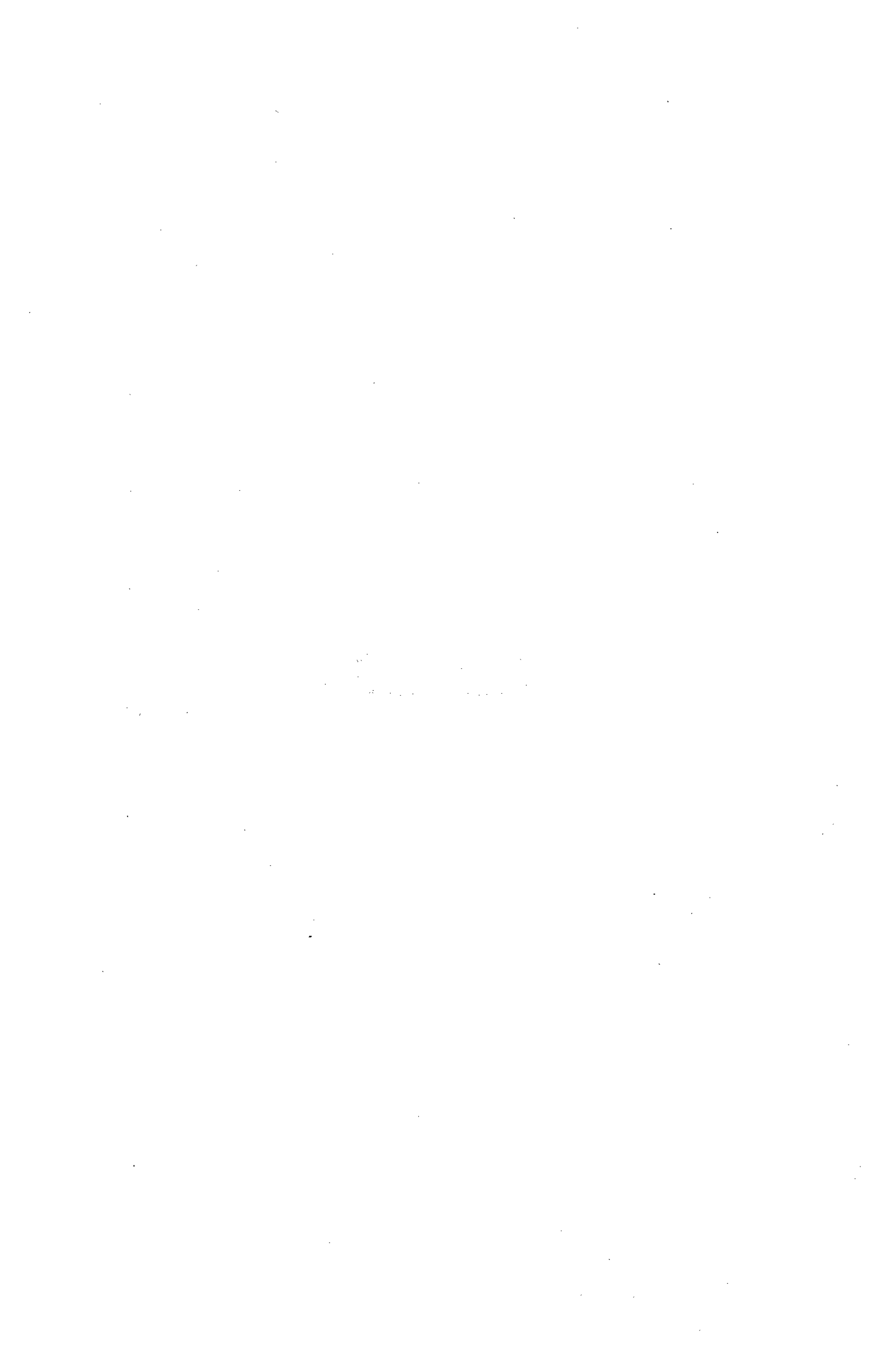
ولا داعي إلى اليأس والتشاؤم فإن هذه الطبقة كما وصفها محمد إقبال:

« إن إقبال ليس يائساً من مزرعته الخَرِبة ، إنها إذا تندّت وابتلّت قليلاً[1] أتت بحاصل كبير .

---

(١) يشير إلى أن هذه الطبقة المثقفة ـ الثقافة الجديدة التي كان أحد أفرادها ـ إذا رزقت حظاً من الإيمان والحنان ، وقوة العاطفة ، ورقة الشعور مع ثقافتها العصرية وقوة الارادة ، وحب الواقع ، لكان لها شأن عظيم ، ومثلت دوراً رائعاً في خدمة الاسلام ، وإنهاض الأمة .

الموقف الثالث



إذن فما هو الموقف الثالث ، وما هو الموقف العادل الذي يجب أن يقفه العالم الإسلامي تجاه هذه الحضارة الغربية ؟

إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية ، ومركزها في هـذا العالم ، ثم نعرف موقفها من هذه الحياة التي تصوغ الحضارات ، وتشكل المجتمعات والمدنيات .

مركز الأمة الاسلامية ورسالتها :

إن الأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هي التي تسيطر – ويجب أن تسيطر – على جميع مواقفها ، وتصرفاتها ، مركزها مركز القيادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوة وصراحة « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى – من القيادة والتوجيه ، والأمر والنهي ، والخلق والإبداع – بالتقليد والتطبيق ، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحر الكريم ، القوي الإرادة ، المستقل التفكير ، الذي يأخذ – إذا اضطر واحتاج – من حوله بإرادة واختيار ما يطابقه ويلائمه ، وما لا يرزؤه في شخصيته وتفوقه وامتيازه ، وثقته بنفسه ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدمجه في غيره ، ولذلك نهيت هـذه الأمة عن التشبه

بقوم في شعائرهم وشاراتهم[١] .

وهي أمة ذات هدف معين في الحياة ، ورسالة كاملة في العالم ، وحضارتها وثقافتها، وكفاحها ، وانتاجها، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدتها وغاياتها ورسالتها فلاقيمة عندها لفلسفة تقول « العلم للعلم » و « القوة للقوة » و « الاكتشاف للاكتشاف » وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان أو على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية ، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية ، فإن ذلك عندها ضرب من العبث ، ونوع من الأنانية المتضخمة ، والقرآن يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتّقين[٢] » .

المؤمن القوي العليم الصالح المصلح :

إنما يسمح لها الإسلام بالكفاح في سبيل الحياة والطبيعة والعلم ـ وقد يحث عليه ـ لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حد الضرورة ، وقد ضرب الله لها مثلاً في القرآن « بالإنسان القوي العليم الصالح المصلح الذي يسخر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب

(١) قال العلامة الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (م ٧٤٣ هـ) في كتابه الكاشف عن حقائق السنن المحمدية (شرح مشكاة المصابيح) في شرح حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » الذي أخرجه أحمد وأبو داود « هذا عام في الخلق والخلق والشعار ، ولما كان الشعار أظهر في التشبه ذكر في هذا الباب» قال العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملا علي القاري (م ١٠١٤) في المرقاة « قلت بل الشعار هو المراد بالتشبه لا غير، فان الخلق الصوري لا يتصور فيه التشبه ، والخلق المعنوي لا يقال فيه التشبه بل هو التخلق (ص ٤٣١ ج ٤) .

(٢) القصص ٨٣ .

والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك ، وفي أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب مؤمن بربه ، خاضع له، مؤمن بالآخرة، ساع لها مقر بضعفه، رحيم بالانسانية وبالأمم الضعيفة، حام للحق ، يستخدم كل قوتـه وجهوده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية، وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله، وإخراج النّـاس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة النّـاس والمادة إلى عبادة الله ، سيرة مثلهـا سليمان بن داود في عصره ، ومثلها ذو القرنين في عصره ، ومثلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم[1] ».

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة :

أما موقفها من هـذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثـل الأعلى ، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدم ، إنمـا ينظر إليها كمرحلة « عابرة » لا بـد من اجتيازها ، وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر ، والحياة الدائمة ، والعيشة الراضية ، إن القرآن يقرر ــ بكل وضوح وقوة ــ قصر هذه الحياة الدنيا ، وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلاً : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل[2] » ويقول « وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون[3] » ويقول «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب

---

(١) تفسير سورة الكهف للمؤلف « المسلمون » المجلد السادس عدد ٤ .

(٢) براءة ٣٨ .

(٣) العنكبوت ٦٤ .

الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور[١] » .

ويقرر كذلك ـ في وضوح وقوة ـ أنها قنطرة إلى الآخرة، وفرصة للعمل، فيقول: « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عَملاً[٢] » ويقول « الذي خلقَ الموتَ والحياة لِيبلوكم أيكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور[٣] » ويقرر أن الآخرة خير وأبقى فيقول « وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهو وللدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون[٤] » ويقول « وما أُوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون[٥] » ويـذم ويشنع على من يؤثر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة ـ على الآخرة ـ الباقية الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار ـ فيقول « إنَّ الذين لا يَرجون لقاءنا ورَضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون، أُولئك مأواهم النّار بما كانوا يكسبون[٦] » ويقول « مَنْ كان يُريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون، أُولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، وحبطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون[٧] » ويقول « وَوَيْلٌ للكافرين من عذاب شديد الذين يَستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها

(١) الحديد ٢٠ . (٢) الكهف ٧ . (٣) الملك ٢ .
(٤) الأنعام ٣٢ . (٥) القصص ٦١ . (٦) يونس ٧ ـ ٨ .
(٧) هود ١٦ .

عِوَجاً ، أولئك في ضلال بعيد[١] » ويقول « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون[٢] » ويقول « فأعرض عمَّن تولىَّ عن ذِكْرنا ولَم يُرِدِ إلاّ الحياة الدنيا، ذلك مَبلغُهم منَ العلم، إنَّ ربَّك هو أعلم بِمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى[٣] » ويقول « إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً[٤] » ويقول « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى[٥] » .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها، فيقول « فَمِنَ النّاس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار[٦] » ويقول على لسان نبي الله موسى « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُدْنا إليك[٧] » ويمدح خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين[٨] » .

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة، ويحدده بدقة، ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة هو الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الله ﷺ « إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة[٩] » فالمسلم يجمع بين الانتفاع

---

(١) إبراهيم ٣ . (٢) الروم ٧ . (٣) النجم ٢٩ ـ ٣٠ .
(٤) الانسان ٢٧ . (٥) النازعات ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ .
(٦) البقرة ٢٠٠ ـ ٢٠١ . (٧) الأعراف ١٥٦ .
(٨) النحل ١٢٢ . (٩) رواه الطبراني في الاوسط .

بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خلق لأجله وسخر له، وبين السعي للآخرة والكفاح لها كغاية خلق لأجلها ، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيِّد ، ووسيلة لا كغاية ، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها ووطن يلجأ إليه فيجمع عليه همته ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته، وذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول ﷺ إذ قال « ما لي وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها[١] » .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية أو النظرة القرآنية إلى الحياة في حياة النبي ﷺ وتعاليمه وسلوكه ، وكلامه وعواطفه وأمانيه ودعائه وسره وعلنه ، وتجلت كذلك في حياة الصحابة الذين تربَّوا وتكونت سيرتهم وعقليتهم في حضانته وتحت إشرافه ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمة، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، ومزاجاً لا ينفك عنهم ، وأصبح من الحقائق التاريخية التي لا يمارى فيها .

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة أو مدرسة النبوة – إن صح التعبير – مع الفلسفات المادية ، والتفكير المادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، وهي المنتهى ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها .

حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسي الفاجعة للبشرية

---

(١) رواه أحمد والترمذي .

أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك،وفي أُمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي العنيف ، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أُسس مادية خالصة، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرف هذا الكون،وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء ،ووضع أوربا الخاص،فشبت هذه الحضارة واختمرت وهي المسيطرة على القوى والأسباب ، قد بلغت الغاية في التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات والأبعاد،وتتجاوز الكرة الهوائية، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية[١] » .

سيطرة « المادية » على قادة التجديد في الشرق الاسلامي

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد وبالأصح التغريب في الشرق الإسلامي وتواضعوا – من عهد كمال إلى عهد جمال – على الافتتان بالتقدم المادي واتخذوا القوة والرفاهية إلهاً يقدس ويعبد ويكفر بغيره ، ويضحى على أنصابه بكل القيم الخلقية والروحية ، وما ليست له قيمة مادية ، وحسب القارىء أن يقرأ خطب هؤلاء الزعماء القوميين والقادة السياسيين ، وما يكتبونه بين آونة وأُخرى ،

(١) منقول من تفسير سورة الكهف للمؤلف المنشور في « المسلمون » المجلد السادس (١٣٧٧ هـ) عدد ١ – ٢ – ٣ – ٤ .

وما يدلون به من تصريحات، وما يتخذونه من إجراءات رسمية وخطوات عملية وما يعاملون به الأحزاب التي تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ومجالات النشاط والحركة والحماسة في الدوائر الرسمية ، يراها مقتصرة على ترفيه البلاد وتقويتها مادياً، ورفع مستوى الحياة ، ومجاراة الشعوب التي لا تعرف غير المادة والمحسوسات حقيقة، ولا تعرف غير القوة إلهاً ولا تعرف غير التقدم المادي والرفاهية الدنيوية هدفاً وغرضاً، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم ــ رابطة قومية أو معاهدة سياسية ــ مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام والاهتمام ، إن هـذه هي النفسية التي جرّت على العالم الشقاء والبلاء في كل زمان ، وهي العقليـة الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، وجاء يمحوها الإسلام ، وإن احتضان قادة بلد إسلامي لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة في التفكير لا تدل إلاّ على ضعف الإيمان وسوء التربية، وسقوط الهمة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولاً، وشقاء العالم الإنساني ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأُمة في العالم ، ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها ، والتأكيد على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة ـ من سعادة وشقاء وجنة ونار ـ والتأكيد على الجانب الخلقي والروحي من الحياة، هو الخط الفاصل الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي بين الحضارتين ، حضارة يوافق عليها الإسلام ، ويتحمل مسئوليتها ،

ويباركها ، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والاتباع ، وحضارة يتبرأ منها الإسلام ، ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام،والعبادةالتي لا تعرف إلاّ تقليدالببغاوات،ومحاكاةالقرود.

محنة ذكاء وقوة إرادة :

إن التصميم الحضاري محنة ذكاء،وعصامية وعبقرية ، وقوةإرادة، وفقه دين ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، إن الإسلام قد حد حدود الحلال والحرام ، وحرم تخطّي هذه الحدود ، وأفسح المجال بينهما للتمتع الكريم النزيه ، في غير إسراف وإجحاف ، ومس بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع في الإثم والفحشاء والتبذير،والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ،والكرام الاقوياء ، وهذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس ، والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة،وحث على مراعاة المصالح ،والتجنب من المضار والمفاسد،وإعداد الممكن المستطاع من وسائل القوةوالدفاع، واقتباس الصالح النافع من العلوم والحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة القومية ـ الإسلامية ـ وبشرط أن لا ينشيء ذلك في الأُمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً في الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم، وإجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة

الحرير في مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير مفترضة ولا مختلقة ، وغير متخيلة ولا مبالغاً فيها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، متهيئة لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت وتكونت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين ولا تغير وضع الأخلاق .

الافادة من الغرب ومجالها :

وأحلي هذا الفصل الذي يحدد موقف العالم الإسلامي من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحصافة الفكرية،وهي تحدد ـ بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة ـ الخط العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم الإسلامي في الإفادة من الغرب،وتبني الوسائل الحديثة،يقول محمد أسد:

« إن عالمي الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر، كما هما اليوم ، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية ، إنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً

ولا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافي ، بخلاف الخلق والإبداع لا بـد أن يحقر الأُمة ويقلل من شأنها .

أنا لا أعني أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب، وبخاصة في مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق « تقليداً » وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد ، إن العلم لا غربي ولا شرقي، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، إن كل عالم يبني على الأُسس التي يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بني أُمته أو من أبناء أُمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى إنسان ومن عصر إلى عصر ، ومن مدنيـة إلى مدنية ، بحيث أن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقـال إنها « تخص » و « تعود إلى » ذلك العصر أو إلى تلك المدنية، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أُمة ما، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها ، بنصيب أكبر في صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة في هـذه العملية ، لقد جاء حينٌ كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوربا فنقلت إلى أوربا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنيـة ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هـذا : مبادىء « تلك الطريقة العلمية » نفسها التي يرتكز إليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فإن

اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل من الكيمياء علماً «عربياً» كذلك لا يمكن أن يقال إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان « إسلاميان » مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البستاني ، وكلاهما كانا مسلمين، تماماً كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية «الانكليزية» مع أن صاحبها كان إنكليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، وإذن فإن المسلمين إذا تبنوا كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية، فإنهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ، ولكنهم إذا تبنوا – وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك – أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع[1] » .

الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب :

إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العبقري

(١) الطريق الى مكة للأستاذ محمد أسد (ليوبولد سابقاً) ص ٣٧٤ – ٣٧٦ .

العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء ، ويشق له طريقاً خاصاً بين مناهجها ومذاهبها ،وبين فضائلها ورذائلها، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة ، وباللباب دون القشور .

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده ولأُمته طريقاً مبتكراً يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الأنبياء والرسل والدين الذي أكرمه الله وأُمته به عن طريق محمد ﷺ ، وبين العلم الذي ليس ملك أُمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التي هي أعظم قوة وأغنى ثروة في خدمة الإنسانية وبناء صرح المدنية، والغايات الرشيدة الصالحة التي لا يوحيها إلاّ الدين السماوي والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل وفي جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه في هذا الإيمان وفقره في هذه الدوافع الخيرة وفي هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم في شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية أو لغايات تافهة لا قيمة لها .

العبقري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ،وعلى القوة والانتاج والرفاهة وحب الابتكار في جانب آخر ، ولا يعامل

الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلاّ برمته ولا يقبل إلاّ على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص لبني النوع ، وسعي خاص للآخرة وجهاد دائم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل، والإمام الدائم والقائد المطاع والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذي تنال به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أُمته وبلاده وما ينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العبقري العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالدٍ ، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ،

وكفرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية فيأخذ منه ما فاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً ، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج ـ بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية ـ منهجاً جديداً يجدر بالغرب تقليده وتقديره ، ويضيف إلى المدارس الفكرية والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع .

هذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقوداً في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام.

وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثراً ليس في محيط شعب أو بلد، وليس في محيط العالم الإسلامي فحسب بل في محيط العالم وفي محيط الإنسانية كلها، وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها في الأقطار الإسلامية والعربية، ممسك قلبه ليسطر له سطور الثناء والإجلال ويقلده الزعامة الحقيقية ، ومركز التجديد في العالم الإسلامي ، والعبقرية والعصامية في التاريخ الإنساني ؟

ثورة في التفكير :

ولكننا إذا أردنا أن نعيّن موقفنا من الحضارة الغربية ونتجه الاتجاه

الذي يستطيع أن يملأ هذا الفراغ الهائل في العالم الإسلامي،بل فيالقيادة العالمية ، ويردّ إلى الأُمة الإسلامية اعتبارها ومركزها الحقيقي وجب علينا أن نحدث ثورة في التفكير ، فقد كانت النظرة التي اعتاد قادة الفكر وزعماء السياسة وأولياء الأُمور في العالم الإسلامي ، أن ينظروا بها إلى الأُمة الإسلامية وإلى أنفسهم نظرة سطحية ودليل افلاس كبير وانهيار عظيم في التفكير والنظر وفي تقدير القيم والمفاهيم .

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم منتشرة في البلاد،ذات قوميات مختلفة ولغات متنوعةوثقافات محلية ، محاطة بظروف وأجواء خاصة ، و « إمكانيات » محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة وأُسرها المشتتة « وحدتان » اثنتان لاثالثةلهما، « العقيدة » والخضوع للغرب ، والاعتماد عليه في المعيشة والسياسة .

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات «والامكانيات» وبما نملكه من الوسائل والمواد الخام، وحواصل البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس ، والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحة في إقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنّا بسيادة الغرب وقيادته وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفرّ ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول ولا التطور ، وتجدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة،« إذا قيل لك أن التترانهزموا

فلا تصدق »[١] .

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة، وإذا فكرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق إلاّ للخضوع والخنوع ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالاً على الغرب مكبلين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين.

هكذا يفكر العرب ، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان ، وفي أندونيسيا ، وفي تركيا .

وهكذا يفكر النّاس في اليابان، وفي الصين ، وفي الهند، وفي سيام، وفي بورما .

هذا هو التفكير « السليم » ، وهذا هو المنطق «السديد» ـ كما يسميه النّاس ـ وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والإيمان بقوة الأسباب وطبيعة الأشياء .

ولكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير ، ولا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكري ، ثورة قوية عارمة ، إن لها منهجاً ـ في العمل ـ مختصاً بها ، وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل

---

(١) كان ذلك المثل هو الجملة المأثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الإسلامي واخضاعه من أقصاه إلى أقصاه .

الثورات وأصلحها وأقواها في التاريخ وفي تغير الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للأمم الضعيفة إلاّ في هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم ـ التي تؤمن بالمبادىء وتحتضن الدعوات ـ إلاّ في هذا المنهج .

ليس شيءٌ أشد خطراً على المسلمين من هذا التفكير الذي تسلط على عقلية قادة العـالم الإسلامي في العهد الأخير ، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التي لا رسالة لها في العالم ولا دعوة لها للأمم ، توزن في ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادي ، وتقوم بمـا تملكه من ثروة وذخائر ، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى « الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله » .

إن المسلمين لا شك فقراء ضعفاء متخلفون في العلم والصناعـة وفي الاقتصاد والسياسة ، المسافة بينهم وبين الأمم الأوربية مسافـة قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ولينل ذلك منهم كل عناية ورعاية .

ولكنهم في وقت واحد القوة الكبرى في العالم فعندهم دين هو حاجة البشرية كلها ، وعندهم دعوة تنقذ العالم من نهايته الأليمة التي تنتظره وتدنو إليه ، وعندهم الإيمان الذي يخلق الأمانة والشعور بالمسئولية في النفوس ويخلق الدوافع القوية إلى عمل الخير وخدمة الإنسانية وقـد

حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الأسباب والوسائل لعمل الخير وخدمة الإنسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة إلى القضاء على المدنية والإنسانية ، وحاجة أوربا في اقتباس هذا الإيمان من المسلمين أشد وأعظم من حاجتنا إلى الاقتباس من صنائعها وعلومها ، لأن هذا الإيمان هو الأساس وهو الموجه وهو الضابط ! وعندهم شريعة تحل جميع المشاكل والأزمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين ، وعندهم ــ أولاً وآخراً ــ نبي أرسل رحمة للعالمين « يهدي بهِ اللهُ من اتبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام ويخرِجُهم من الظلماتِ إلى النورِ ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم » .

ألا فليتّجه قادة العالم الإسلامي بهذه الدعوة إلى أوربا الحائرة التائهة بإخلاص ونزاهة وتوجع وشفقة ، وبقوة وثقة وإيمان ، ولينظروا إلى أنفسهم كدعاة ومنقذين ، مبشرين ، منذرين ، ويستخدموا هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرهم ومصير العالم وليحتلوا بفضلها مكان الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ومصاف الأمم ، بعدما عاشوا زمناً طويلاً في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، وليتجهوا بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما تقبل فترفع وتؤمن ، وإما ترفض فتهلك وتقهر ، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها .

وليتجهوا بهذه الدعوة إلى مجالات مهجورة وكنوز مطمورة في آسيا وفي أفريقية ، إلى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة والسواعد القوية ، وجهلت الدين

والغايات الصالحة والمبادىء الفاضلة،وهي مستعدة لقبول هذه الدعوة، وإذا قبلت هـذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد كما تغيّـر في العهد الأول بإسلام الفرس والترك والديلم، وفي العهد الأوسط بإسلام التتار والمغول.

لقـد بلغت الحضارة الغربية قمتها وأوجها ، وأصبحت البلاد الإسلامية بفعل العوامل الكثيرة،وتاريخها الطويل عاجزة عن مناهضتها أو مسايرتها في شوط واحد ، وإذا أمكن ذلك فإنّ العقيـدة التي تدين بها،والمبادىء التي تؤمن بها والغاية التي تتقيد بها لا تسمح لها بأن تكون نسخة مطابقة للأمم الغربية، فإن ذلك يعني الانتحار الاجتماعي ،لذلك كان بين التقليد والاتباع وبين السلب والنفي طريق وسط ، مشرّف كريم،ومتّـزن مستقيم،يتفق مع مركز هذه الأمة ورسالتها كل الاتفاق، ويعتبر أعظم محاولة وأشرف تجربة في التـاريخ الحديث وهو قيادة الحضارة الحديثة وتوجيهها،ونفخ الروح الجديدة فيها ، ومنحها الغايات الصالحة والأهداف الصحيحة وتلقيحها بالإيمان والحب، الّـذين تجرّدت عنها منذ زمن طويل ، والّـذين تجود بهما النبوة وتعاليم السماء ، المهمة التي لا ينوء بها ولا يقوى عليها إلاّ العالم الإسلامي ، ولا يحلُم بها أحـد من غير المسلمين ولا تخطر على بال إلاّ في العـالم الإسلامي ، ولكي نفهم حاجة الإنسانية الشديدة إلى هـذا التلقيح المبارك ونعرف مدى جناية الفصام النكد الذي وقع بين العلم والإيمان والوسائل والغايات ، وبـين الشرق والغرب، لا بد من تفصيل وبسط قرين في هذا الموضوع ، وإلى

القارىء الكريم قطعة من محاضرة للمؤلف أُلقيت في جامعة لندن في سنة ١٩٦٤م،وقد حددت، فيها بوضوح وصراحة مهمةالشرق الإسلامي:

« لقد ظل الشرق بعيداً عن الغرب ، مستقلاً بنفسه ورسالته ، وظل الغرب بعيداً عن الشرق مستقلاً بنفسه ورسالته ، لا يلتقيان إلاّ تحت نقع الشبهات والظنون ، والإحن والأحقاد ، لا يلتقيان لصالح الإنسانية المشترك ، ولبناء المدنية المُثلى ، ولا يتبادلان ما يختصان به من مواهب إلهية وعلوم مكتسبة ، واستعدادات فطرية ، وما أنتجاه وأبدعاه على مر الدهور والأعصار من علم وفلسفة ، وأدب وحكمة ، إلاّ نادراً وفي دائرة محدودة .

ظل الشرق يعمل في مجاله الطبيعي،ويدافع في فطرته التي اختمرت مع الدين ، توقظها النبوة الكريمة حيناً بعد حين ، وتغذيها الدعوات الدينية والشخصيات الروحية القوية باتصال واستمرار،وكان موضوعه « الإنسان » وكان موضوعه هذا الإنسان أكثر مما حول الإنسان وتحت قدمه وفوق رأسه ، عني به الشرق بإخلاص وجد ، وجاهد فيه جهاداً كبيراً ووهب له جميع مواهبه،وصب فى هذا الموضوع ذكاءه وعبقريته، وقوة إرادته ، عني باكتشاف أسراره التي لا نهاية لها ، وسبر غوره الذي لا قرارة له ، وإشعال مواهبه وإثارة قواه التي لا تعدلها قوة في هذه الأرض ، وتنظيم ميوله واتجاهاته ، وتهذيب أخلاقه التي لا صلاح للبشرية بغير صلاحها .

جاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وجاء في آخرهم النبي العربي

الأُمي ﷺ فعني بهذا الإنسان وتربيته وإثارة كنوزه ودفائنه ، وفتح فيه عين البصيرة التي يدرك بها خالقه ورب هذا الكون الواسع العجيب ، ويستمد بها النور والحياة ، والعلم ، والحب ، والثقة ، والعزم ، والطمأنينة ، والرضا ، ويعرف بها مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذا الكون ، فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا العالم ، فيتراءى له هذا الكون وحدة لا تبعثر فيها ، ولا تناقض ، ولا فوضى فيها ولا تنافس ، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة ، إنما هي مملكة منظمة واحدة ، تديرها إدارة قاهرة رحيمة واحدة ، « ألا له الخلق والأمر » ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً » يتخلص بذلك عن جميع أقسام الوثنية والثنوية ، وعن الأوهام والخرافات ، وسلطان الأساطير والروايات ، والتقاليد والعادات ، ويترفع عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبره ، حجراً كان أو شجراً ، بحراً كان أو نهراً ، شمساً كانت أو قمراً ، ملكاً كان أو بشراً ، أُنثى كانت أو ذكراً « رب السماوات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً » .

وفتح فيه النافذة التي نظر منها إلى نفسه وجنسه ، فوجده خليفة الله في هذا العالم ، نفخ فيه من روحه ، وجعله موضع سرِّه ، ومستودع أمانته ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصه بأفضل تكريم ، وخلع عليه لباس النيابة والوصاية ، وألبسه تاج الكرامة والإمامة ، وخلق له ما في الأرض جميعاً ، وخلقه لنفسه ، وأسجد له ملائكته فحرم عليه بذلك السجود والخضوع لأي كائن مخلوق « لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم[١] » « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم مِنَ الطيِّبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً[٢] » .

ونظر منها إلى بني نوعه ، نظر منها إلى الأسرة البشرية المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدها أُسرة موحدة كنفس واحدة ، تلتقي على أب واحد وأم واحدة يعتبرها ـ في ضوء تعاليم النبوة ـ عيال الله ، ويعتقد أن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ووجدها تحمل روحاً ونفساً وشعوراً ، يألم كل عضو منها كما يألم الآخر ، ووجد أن التمييز بين أعضاء هذه الأُسرة على أساس اللون ، أو الوطن ، أو الشعب ، أو الفقر ، أو النسب ، تراث جاهلي ، وقد سمع هذا النبي الكريم مرة يقول لربه في ظلام الليل خالياً « أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة[٣] » وأخرى بقول في ضوء النهار ، وأمام الجمع الحاشد : « إن الله يقول : (ياأيها النّاس إنا خلقناكم مِنْ ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا إنَّ أكرمكم عِندَ اللهِ أتقاكم) فليس لعربي على عجمي فضلٌ ولا لعجمي على عربي فضلٌ ، ولا لِأسود على أبيض فضل ولا لِأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى[٤] » .

عني الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في عصورهم ومناطق

(١) التين ـ ٤ .
(٢) الاسراء ـ ٧٠ .
(٣) سنن أبي داود .
(٤) المعجم الكبير للطبراني ، خطبة حجة الوداع .

دعوتهم ، وعني النبي العربي الأمي ﷺ في آخرهم بتربية هـذا الإنسان وتحريك مواهبـه واستعداداته التي لم تبلغ الفلسفة أو علم النفس أو الاكتشافات الحديثة بعد إلى نهايتها وقرارتها ،ثم عني بتنظيمها وتوجيهها إلى صالح نفسه وصالح الإنسانية ، وأثار فيه رغبة غريبة ، ونهامة عجيبة لإرضاء الرب والتقرب إليه ببذل النفس والنفيس ، والتفاني في حبه وطاعته ، وفي محبـة خلقه وخدمتهم ، وإزالة المكروه عنهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة ، وإيثارهم على نفسه ،ومحاسبة النفس الدقيقة ، ودقائق الإخلاص والأخلاق ، الدقائق التي لا يبلغ اليها ذكاء الأذكياء ، ولا يدرك كنهها علم العلماء ،والتي هي أدق من المعاني الشعرية ،والأخيلة البديعة في آدابنا ، ولا ترى بأدق مكبرة ، ولا تصور بأحدث آلة ، ووصل في عزارة الحب ،وقوة العاطفة ،ورقة الشعور ،ودقة الإحساس ، وشفافة الروح ، ونبل الأخلاق وكرامة النفس ، والتجرد عن الأنانية ، والزهد في زخارف الدنيا على المقدرة ، وسمو الفكر ،وعلو الهمة ، وشدة الشوق إلى لقاء الرب ، وفي علم الذات والصفات الدقيق العميق ؛ ما لا يتصوره إنسان ،إلا إذا عاش مدة في سيرهم وأخبارهم ؛ ونزل في أعماقهم ، وأغوارهم ؛ فكان « الإنسان » مأثرة النبوة الكبرى ؛ والحقل الذي تعهدوه وبذروا فيه البذور الكريمة فأتى بأكبر حاصل ؛ وأفضل زرع.

إن الأنبياء في الشرق ، لم يعنوا باكتشاف القوى المودعة في هذا الكون وتسخيرها واستخدامها كثيراً ، ولا باختراع الآلات والوسائل عناية كبيرة ، إنما كان جل عنايتهم تربية الإنسان وإيجاد الإرادة الخيرة

والدوافع الفاضلة فيه ، وتحديد الغايات الصالحة له ، والثروة الطبيعية أو الصناعية كما تعلمون خاضعة دائماً لإرادة الإنسان واتجاهه وغاياته ، فلما وجدت في الإنسان الإرادة الخيرة، والدافع القوي الفاضل ،وعرف الإنسان الغاية الصالحة التي يجب أن يسعى لها،استطاع أن يعمل بثروته المحدودة المتواضعة ، وبالآلات والمرافق المحدودة الضعيفة – التي وصلت إليها المدنية والعلم في عصره – أعمالاً عظيمة لم تتوصل إليها المدنية إلى هذا العصر ، وخدم بها الإنسانية وبني نوعه خدمة لم يوفق لها كثير ممن ملكوا ثروة ضخمة من الآلات والوسائل،ذلك لأنه إذا وجدت الإرادة القوية المخلصة الجادة ، اكتشفت المجهول وأبدعت الوسائل ، وتغلبت على الصعوبات ، وشقت طريقها في صخور الجبال وأحشاء البحار ، وإذا فقدت ضاعت الوسائل،وتعطلت الآلات وحبطت جهود المكتشفين والصناع ، إن الجوع اللاذع والظمأ القاتل ، وحنان الأُم ، ولوعة الحب، وشدة الشوق لم تكن في عصر من العصور في حاجة إلى علم كبير وآلات كثيرة ، ولقد عرفت في كل مكان ، وفي كل زمان كيف تقضي حاجاتها ، وكيف تصل إلى غايتها .

وقد أوجد الأنبياء بقوة شخصيتهم وتأثير تربيتهم رغبة في الإنسان يشعر معها بأنه مدفوع إلى تحقيقها، كما يشعر الجائع، والظمآن ،والأُم الحنون ، والمحب العاني ، فاكتشف الطرق الموصلة إليه والوسائل الضامنة له ، وكانت كافية في عصره الذي يعيش فيه ، وهكذا وجدت المدنية الفاضلة التي تمتع فيها الإنسان بأكبر قسط من الراحة والسلام ،

والعزة والكرامة وكانت مدنية محدودة بسيطة، لا تعقد فيها ولا غموض قابلة للتوسع والتقدم في المستقبل على أساس صالح سليم .

وجاء دور نشاط الغرب وإنتاجه ونهضته ، وقد ضعفت صلته بالدين والأخلاق لسوء تمثيل من تزعمها واحتكرها من العلماء ورجال الدين زمناً طويلاً ، ولضعف هذه الصلة العميقة ولضغط الحاجات الاقتصادية والعوامل السياسية، ولعنف « التنازع للبقاء » في هذه الرقعة المحدودة الأوربية ، اتجهت عناية الغرب ــ بدل الإنسان ــ إلى بيئة الإنسان ومحيطه، وبدل النفس والقلب إلى آفاق الطبيعة الغنية بالقوى والأسرار، وإلى المعادن والمناجم، وعلوم الكيمياء والفيزياء ، والرياضة والهندسة، والصناعة والميكانيكا، وقد جرت سنّة الله أن يؤتي كل إنسان ما طلبه وسعى له، ويسخر له ويمده فيه، والقرآن يقول: « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً [1] » ويقول « : ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى [2] » فصار الغرب يقطع أشواطاً واسعة في علوم الكون والطبيعة والفنون الرياضية والهندسية، ويكتشف سراً بعد سر ، ويصل إلى فتح بعد فتح ، حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث مما لم يكن الإنسان مهما أُوتي من الذكاء في القرون الماضية يحلم به أو يتخيله .

---

(١) الاسراء ــ ٢٠ .
(٢) النجم ــ ٤١ .

لقد تهيأت هـذه الأسباب وهذه الوسائل ، وكانت نعمة من الله لا يستهان بقيمتها وفضلها،وتضخمت وتكدست ، وكانت لغايةواحدة مائة وسيلة وآلة ، وكل فيها الغناء الكبير ، والقوة الهائلة ، والسرعة المدهشة،وكانت أقل منها كافلة لسعادة البشرية وهنائها ورخائها وإقامة السلام العالمي ، ونشر الحب والوحدة ، والتعارف والتعاون بينفروع هذه الأسرة المنتشرةفيالعالم ورفع الحواجز بينها وإزالة السدود دونها، يستطيع الإنسانالیوم أن يمد يد المساعدة والبر والمواساة إلى أقصى رجل في العـالم ، ويسمع دقات قلبه وخلجات نفسه ، ويرى وجهه ويسمع كلامه ، ويمنع الظلم ـ إذا أراد ـ وينصر المظلوم ، ويمير الجائع في صحراء أفريقية ويغيث الملهوففي أقصى الصين ، وقد زال كلمانع كان سببه جهل الإنسان وضعفه،والذي كان يتعلل به القدماء الضعفاء، وحدثت كل آلة يحقق بها الإنسان إرادته، ويصل بها إلى غايته فيأقرب وأقل جهد ، فلا عـذر لطالب خير ، ومحب إنسانية ، ومؤيد سلام ، ولا عذر لفرد ولا لمجتمع ، ولا لحكومة .

لقد كانت هذه الوسائل كافلة بأن تحول هذه الدنيا المليئة بالأكدار والأخطار ، المثخنة بالجراح إلى جنة أرضية ، لا نصب فيها ولا لغوب ولا خوف فيها ولا حزن ، ولا حرب فيها ولا عداوة ، ولا فرق فيها ولا مرض ، ولكن هل تحقق ذلك ، وهل زال الخوف والقلق . وهل انتهى الفقر والبؤس ، وهل انقرض الظلم والهمجية ، وهل سادالسلام والإخاء ، وهل انتشرت الثقة بين أفراد الأسرة الإنسانية ، وهل زال

شبح الحروب المخيف ، ومات عفريتها الراعن ؟ إنني لست في حاجة إلى أن أقف وأنتظر جوابكم،فإن هذا العصر قد شهد حربين طاحنتين مدمرتين عالميتين ، وساهم في نتائجها وويلاتها ونحن كلنا نعيش في عصر الذرّة وهولها ، وقد ملأ المفكرون والكتاب المكتبة الحديثة بالكتب التي تصور انحراف هذه المدنية وشقاء أهلها بها ويندبون فيها التفسخ الخلقي، وتحلل الروابط،وتفكك الأُسر، وانتشار القلق والاضطراب وتسلط الخوف والذعر ، وفي ما كتب ويكتب كفاية وبلاغ .

لماذا كانت هذه النتيجة ؟ والوسائل بريئة ، والآلات صماء لا ضمير لها ولا اتجاه ، وهي صالحة مهيأة للخدمة والنفع في كل وقت إذا أراد صاحبها ومعرفها،إن الجواب ليس سراً يكتشف أو لغزاً يُحل،وليس فيه امتحان ذكاء وتفكير،والسبب أن الإنسان لم يتقدم بقدر ماتقدمت العلوم ، وأن الأَخلاق والميول والاتجاهات لم تتقدم بقدر ما تقدمت الآلات والمؤسسات ، بل الواقع أن العلوم تقدمت على حساب الإنسان وعلى حساب الأَخلاق ، وإن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات، ، وعلى حساب الروح والقلب ، ذلك لأن الغرب – مع الأسف الشديد – حصر نشاطه وذكاءه وقوة إرادته في المجال الخارجي ، وركز كل جهده وكرسه على العالم الخارجي ، وانصرف عن الإنسان انصرافاً كلياً ، وإذا أقبل عليه – في دائرة علم النفس أو علم الأحياء – أقبل بفكر مادي محدود لا يتناول أغواره وخصائصه ، وإيمانه وعقيدته ، وأخلاقه ، ولم يتناول المصدر الذي يقوده ويوجهه ،

ويمنعه من الشر ، ويدفعه إلى الخير ، وذلك هو القلب الذي إذا صلح صلح الإنسان ، وإذا فسد ، فسد الإنسان .

ومع الأسف إذا أراد الغرب أن يقبل على هذا القلب وينتفع به ويوجه به الإنسانية لم يستطع ولا يجد إلى ذلك سبيلاً ، لأنه فقد المفتاح الذي يفتح به هذا القفل ، والقفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وعجزت صناعته الدقيقة ، ومصانعه الهائلة ، ونوابغه العباقرة عن أن يصنعوا له المفتاح الجديد،أو يكسروا له هذا القفل العنيد، لأنه قفل الإنسانية، لا قفل البنوك والمصانع ، ولا قفل الصناديق والخزانات ، لا يفتح إلاّ بمفتاح الإيمان ، ومفتاح الإيمان الذي أتحفت به النبوة الإنسانية في الزمن القديم، مفقود أو مطمور في الغرب تحت ركام المدنية أو أنقاض المعابد من قديم .

الجمع بين الغايات والوسائل ، والعلم والإيمان :

إن شقاء الإنسانية في انفصال الغرب عن الشرق ، وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات عن الأخلاق والغايات الصالحة ، هذا الانفصال النكد الذي جرّ على مدنيتنا شقاءً طويلاً ، والإيمان تقدم وتضخم في الشرق قديماً،والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثاً،والإيمان لا يزال ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مراقبة الإيمان ، والإنسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما ، في بناء المجتمع الجديد، وفي إنشاء الجيل السعيد ، ولا أمل في السلام والسعادة الحقيقية ، إلاّ بهذا الالتقاء المبارك والتعاون الكريم،وليست ثروة الشرق،هي هذا النفط ـ الذهب

الأسود ـ الذي ينقله الغربيون إلى عواصمهم لتتحرك به هذه المدنية بطائراتها ، وسياراتها ، إن ثروة الشرق، وهديته ذلك الإيمان الذي نبع وفاض في الشرق،وأخذ الغربيون منه نصيباً في بداية تقويمهم الميلادي، ثم نبع وفاض بقوة هائلة ، قوة لا نظير لها في التاريخ في القرن السابع من تقويمهم ، نبع في ركن بعيد من جزيرة العرب ، ثم فاض في العالم وأروى الإنسانية كلها ، ولا يزال في متناول يد كل شعب وكل فرد ، إذا صحت العزيمة ووجدت الجراءة الخلقية ، ولا يزال جديراً قادراً على إزالة جميع المشكلات التي تعانيها هذه المدنية،ويستطيع أن يفيض على هذه المدنية ـ بقوته وحيويته العجيبة ـ حياة جديدة ، ويمنحها قسطاً جديداً ، من الحياة ، ونوعاً جديداً من الرسالة ، ويحول هذه الآلات والمؤسسات وهذه العلوم والصناعات إلى غايات رشيدة صالحة بناءة ويستخدمها في صالح الإنسانية وفي بناء المجتمع الجديد ، المجتمع الذي يتطلع إليه هذا العصر .

إمامة العصر الحاضر :

إن دعوة أوربا إلى الإيمان والإفادة من النبوة أكبر ثورة وأضخم رسالة في العصر الجديد ، ولا ينوء بهذه الدعوة ولا يقوم بأعبائها إلاّ البلاد الإسلامية التي لا تزال فيها شرارة الإيمان ، ولا تزال فيها أمانة النبوة وميراثها ، والتي تستطيع أن تشرح للغرب حاجته إلى هذا الاقتباس الكريم ، وما يفيضه هذا الاقتباس على الغرب وعلى العالم من يُمنٍ وسعادةٍ ،ويضع هذه الوسائل والذخائر في صالح الإنسانية وإسعاد

البشرية ، و يُبعد أوربا والعالم بدوره من الهاوية التي لا قرار لها ، والتي تسير إليها أوربا بسرعة القنبلة الذرية وقوتها .

وإن هذه الدعوة هي التي تستطيع وحدها أن تضفي على الأقطار الإسلامية حياة جديدة، وثقة جديدة،وترفعها إلى قمة الكرامةوالإمامة فإن الأمم كما شهد التاريخ لا تنهض ولا تلمع ولا تسود على العالم إلاّ برسالتها ،أو بماتنطوي عليه من صالح البشرية ،وبما تستطيع أن تقوم به من ثورة وإحداث انقلاب في الأوضاع وإن أساس الأُمة الإسلامية الدعوة إلى الله والإرشاد والسعي والجهاد وإتمام الحجة على العباد ، والقرآن لا يزال يخاطب أفراد هذه الأُمة على اختلاف أعصارهم وطبقاتهم، وبيئاتهم ، بقوله :

« وجاهِدوا في الله حقَّ جِهادِه ،هو اجْتَباكم وما جَعَل عليكم في الدِّين من حَرَج ملَّة أبيكم ابراهيم هو سمَّاكم المسلمين، مِن قَبْلُ وفي هذا، لِيكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شُهداءَ على النَّاس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعْتصِموا بالله ، هو مولاكم فنِعْم المولى ونعم النصير[1] » .

(١) الحج ـ ٧٨ .



المحتوى